

الكلية

والنظورات العالمية

تأليف
يحيى حواش

650
136

الاسلام

والتطورات العالمية

تأليف : يحيى حواش

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

مطبعة الحزب - ٣ - نهج بيلسي - الجزائر -

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء وتمهيد

هذه الرسالة المختصرة ساهديها الى شهداء العقيدة الاسلامية التى نفخت فيهم من روحها وافاضت عليهم من سمو وحيوية ونشاط ما جعلهم يواجهون بصدورهم وبمهجهم سعي الاستعمار العاتى ليكونوا سدا حائلا بينه وبين التهامه للبقية الباقية من قيما الروحية واثرواتها المادية فاطفأوا بمثانة عقيدتهم وبقوة عزيمتهم وبريحهم الفدائية ذلك اللهب الملتهم فشققوا بذلك لنا طريقا للحياة المثلى ودفعوا هذا العالم الثالث هذا العالم المتخلف الحائر الى المسعى حثيثا وبخطى ثابتة لان يتبوا المقام اللائق به بين الامم .

ساهديها لاولئك الاحرار الذين تسلموا امانة الخلافة من ايدى اولئك الشهداء وتحملوا عبء القيادة ورضوا بان يكونوا هداة وقادة ومقتحمين عقبات الحياة بتلك الشعور الناشئة الناقصة التكوين المتلمسة لطريق الكمال .

وساهديها الى الاجيال الصاعدة الذين من اجلهم كان ما كان والذين عليهم تركز تلك الحضارة المقبلة التى نتمنى أن تكثر أسعد وأهنا من مدينتنا الحاضرة التى أخذت تتضاءل وتتقلص فترتها وتميل نحو الغروب .

وساهديها أخيرا الى العالم المربى الذى بمقتضى وضعه الجغرافى والسياسى والاقتصادى والثقافى (لم تزل ولن تزال له فاعلية عظمى فى تطوير العالم ودفع عجلته والتأثير فيه .

وبعد :

فهذه الرسالة هي عبارة عن مجموعة من محاضرات القيت بالفرض خاص ثم رايت جمعها ونشرها بعد ان اضفت اليها ما اضفت تعميما لفائدتها ورجاء ان اكون قد شاركت في بناء صرح حضارتنا المقبلة ولو يجهد المقل .

واثن فائنا ان نشارك البناء بدمائنا واموالنا فلا يفوتنا ان نشاركهم بالسنتنا واقلامنا بناء على القاعدة النبوية الخالدة ((اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له)) (وعملا بقوله عليه الصلاة والسلام) ان العبد ليتكلم بكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا فيرفع الله له بها درجات وان العبد ليتكلم بكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا فيهوى بها في نار جهنم سبعين خريفا .

واقدر حاولت في هذه الصفحات القليلة ان اشخص موقف الاسلام حسب ما اراه من بعض القضايا الهامة الحساسة التي تسيطر على مشاعرنا واحساساتنا وتؤثر في حاضرتنا ومستقبلنا كمسلمين . ذلك لان كثيرا من عامة المسلمين يخيل اليهم ان ثمة تناقضا كبيرا بين التعلق بعقيدة الاسلام ومبادئه وبين الاخذ بمقتضيات التطور الحضارى للعالم .

فهم بمقتضى الفريزة الدينية التي ركبت فيهم وتقاليدهم الوراثية منجذبون الى التعلق بتلك العقيدة وبذلك المبادئ وهم بمقتضى كونهم مدنيى الطبع منجذبون الى الاخذ بالتطورات الحضارية والانسجام معها فتقع لهم بسبب هذه العوامل المختلفة ازمتات ومعارك نفسية واصطدامات باطنية على حين ان الاسلام الخالص هو التمسك بالصحيح . وان الاسلام كالانسان مدنى الطبع وتطورى بطبعه .

حاولت ان ابين كل ذلك في هذه الصفحات . على ان القارئ ربما يجد اختصارا قد يكون مخلا في شرح بعض القضايا التي ذكرناها كما يجد قضايا اخرى لاتقل اهمية عن ما ذكرناه لم نتعرض لذكرها اطلاقا كموقف الاسلام من نظرية التعايش السلمى والديموقراطية السياسية والانظمة الدستورية والانظمة الحزبية الى غير ذلك . الا ان غرضنا من اثاره ما اثرناه انما هو لفت نظر العلماء وتوجيه اهتماماتهم لطرق هذه الميادين بشرح اوضح وادق وتفصيل اعمق واوفى .



ذلك التهم الذي كان يستولى على نفوسهم ويكون خاصة من خصائصهم .

فهؤلاء هم الذين لم تتخلص نفوسهم من أضرار الاستعمار الغربي الذي كان ولا يزال يغذى نزعة الرأسمالية والروح النردية في النفوس .

ونقولها للطرف المقابل لهؤلاء ونعنى بهم أولئك الانهزاميين المتشائمين المتخاذلين الذين أدهشتهم هذه الأوضاع الحاضرة وفاجأهم بزوع نجم هذه الدولة الجزائرية الفتية . فقالوا كالأعراب أمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم .

هؤلاء نفضوا أيديهم من الشعب وخلعوا منه ثقتهم فحسبوا أنهم قد انتقلوا من النظام الى القوضى ومن الاستقرار الى الاضطراب ومن الامن الى الخوف . فهم أبدا يتوجسون من هذا الشعب وقادته خيفة ظنا منهم أنهم لا يستطيعون النهوض على الأقدام والتحرك الى الامام . وما ذلك الا لان عقولهم وأفكارهم لا تزال محتلة من قبل الاستعمار المتمكن فيهم . فهم لا يثقون الا في الاجنبى ولا يؤمنون الا به ولا يدعون الا له .

فالطرفان المتقابلان اذن قد جمعت بينهما نقطة واحدة وآل كل منهما الى نوع واحد من المرض الذي كان من الطبيعي أن يوجد في بلادنا وأن يستعد لمقاومته أطباؤنا .

ومن حسن الحظ أن أصبح مقود السفينة في يد ربانها . وكانت النخبة الوسطى هي الاغلبية المعول عليها . وكان الطرفان المتقابلان من الضعف والقلة بحيث لا يكونان خطرا علينا . ولقد أخذ القوس باربها وأصبحت المياه تعود شيئا فشيئا الى مجاريها والحمد لله . أما نحن فنعتقد أن الانتصار يؤدي الى الانتصار ما لم تسر في المنتصر أدواء الاغترار .

الفصل الاول

كيف نؤسس حضارتنا الجديدة

قبل أن نشرع في تفصيل هذا الموضوع رايانا أن نقدم للقارىء نبذة مختصرة حول الوضع الحاضر في الجزائر .

نقول هذه الكلمة المختصرة لمجموع الشعب الجزائري عموما ولطرفي الشعب المتقابلين خصوصا هذا الشعب الجزائري الرائع الذى اثبت وجوده وبرز للعالم بروز الشمس المشرقة التى تمد هذا الكون بضوئها وحرارتها بحيث لا يستطيع أن يحجب نورها حاجب أو يرتاب في وجودها مرتاب . هذا الشعب الذى انتفض فزار فتحرك فاهتزت لتحركته مشارق الارض ومغاريها .

نعم نقولها مدوية لهذه الحفنة الصغيرة من رباب هذا الشعب والهامشين منه . ونعنى بهم المفرقون في المناوئل النازعين بطبعهم الى التيه والبطر . أولئك الذين استخفت احلامهم بشرة الانتصار واتلفت أعصابهم لذة الظفر بعد طول الانتظار .

حسبوا أنهم قد ربحوا كل شيء وأنهم قد بلغوا الهدف المنشود . فاخلدوا الى الراحة واطمانوا الى ما هم عليه من السلم والسيطرة . فتحرك ما كان كامنا فيهم من روح الانانية والنزعة الاستغلالية فكانهم كانوا يكافحون بالامس استغلال الأجانب ليحلوا اليوم محلهم ويقتعدوا مناصبهم وكانهم كانوا مكبوتين قد حيل بينهم وبين ما يشتهون . فلما تفتحت لهم الابواب بفضل الشهداء والمخلصين تفجر

فانشرع بعون الله في تجديد بناء تلك الحضارة العظيمة الممتدة من المحيط الى الخليج الضاربة عروقتها في اعماق التاريخ وما قبل التاريخ من عهد الفينيقيين وقدماء المصريين والبابليين والاشوريين واولائل القحطانيين من عهد عاد وثمود . تلك الحضارة الباسقة فروعها المخترقة عنان السماء التي لها من الخصائص والمقومات ما يضمن لها الخلود ويمكنها من ان تحط رحالها يوما ما في القمر أو المريخ أو في الشعرى اذا وجدت من يؤمن بها ويقدرها حق قدرها . وان هذه النهضة المباركة لتحرك فينا آمالا بعيدة المدى .

❖ واذا رايت من الهلال نموه ايقنت ان سيصير بدرا كاملا ❖

ونحن كمثقفين بالثقافة العربية التي نعتز بها ونؤمن بحيويتها وبانها سوف تبلغ بنا سدرة المنتهى ، واجبنا الوطني الاول هو ان نكشف عن اساس تلك الحضارة العربية الخالدة ومثاقها ومدى صلاحيتها للبقاء والى اى حد يستحيل ان تنفصل عنها وان نستبدل غيرها بها .

ونحن المكافحين لا نطمئن الى ان الاستعمار قد خرج من بلادنا حقا حتى نطمئن الى انه خرج تماما من فكر كل عربي وكل عربية . وكيف يطمئن شعب على مصيره والأمراض الاجتماعية تنخر اعضاء من كيانه . فالتعود على البطالة وتقليد الاجنبي تقليداً اعشى والتصلب في الراى والانحلال الخلقي والتذبذب في العقيدة وغير ذلك من عوامل الضعف هي التي تمهد وتهيب الجو للاجنبي أن يمد يده الى شعب هذه صفاته هادنا مبتسما ليستغل ما شاء وكيف شاء . فلا نأمن من المستعمر ان يعود مرة أخرى ما لم نقض على تلك العوامل المذكورة وما لم نجث عروقتها من اصلها .

ولقد أثبت المنطق والتجربة انه لا يمكن ان تنهض حضارة ما على قدميها الا اذا غذيت بغذائين اثنين : غذاء مادي وغذاء روحي . أما الناحية المادية فلا نتعرض لذكرها . فلندع الخوض في

مبادئها للاقتصاديين ورجال الاعمال . وأما الناحية الروحية فهي التي سنحاول أن نشرحها ونحلل عناصرها وسنقيم الدليل على انه اذا توجهنا بكليتنا الى الجانب المادي وحده واوليائه عنايتنا كلها وانصرفنا عن الجانب الروحي واغفلناه ولم نقم له وزنا فان كل ما نبذلناه في الماضي وما نبذله من جهد وعناء سيضيع ويستحيل هباء .

ان الطائر لا يطير الا بجناحين وان الولد لا ينتج الا عن أبوين وان الثمرة لا يتم لقاحها الا عن اتصال النوعين .

ذلك قانون الطبيعة الذي لا يتخلف وتلك سنة الله . ولن تجد لسنة الله تبديلا . (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) . فمن المستحيل اذن ان تقوم حضارة ما الا على اساسين اثنين . على فلسفة مادية متكاملة العناصر والمقومات وعلى فلسفة روحية متكاملة العناصر والمقومات مع توازن تام بينهما .

والعالم في عصرنا هذا (وقد بلغ من التضوج الفكري حد الاعجاز وبلغ من المقدرة على الاكتشافات العلمية حد الافراط) ما له مختل التوازن .. ؟ وما له يتخبط خبط عشواء في غمرة العمه والحيرة مضطرب السلوك ثقي الضمير قلق على نفسه وعلى مصيره . يعيش على أعصابه ويتقدم الى الامام ولكن على شفا جرف هار .

وما لانسان القرن العشرين قد اكتشف كل ما يريد اكتشافه الا طريق السعادة والاستقرار .. ؟ ولقد حط رحله في المريخ وفي الزهرة لكنه لم يستطع ان يكتشف ما فيه الاطمئنان على نفسه وعلى مصيره بل يعيش خائفا يترقب وعلى رأسه ذلك الجبل العظيم من القنابل الذرية والهدروجنية . أحد طرفيه في واشنطن والآخر في موسكو .

فهذا الانسان اذن لا يزال بعيدا عن ان يستعذب ويستسغ ما أثمرته جهوده الجبارة التي وجهها كلها عن جهل وخطا الى ترقية الوسائل المادية على حساب أهمله وتنقيصه من قيمة الجانب

الروحي والقيم العليا . فتغلب أحد هذين الجانبين على حسب الآخر
يؤدي حتما الى اختلال التوازن فالانهيار فالخراب .

وأوروبا ما لها قد بلغت من المادية الحد الأقصى نرى نجمها يأخذ
في الأفول وحظها في طريق الذبول . . ؟

وأفريقيا وآسيا ما لنا نراها وقد بلغت من المادية الحد الأدنى
يتجه نجمها صاعدا ليشرق من جديد . . ؟

وصاحبنا فرنسا هل أغنى عنها ما عبات من طاقاتها المادية
ووسائلها الفنية وقسوتها الغير المحدودة واستنجاحها بأحلافها
المقوية ضد شعبنا الضعيف الجاهل الفقير المتخلف . هل أغنى ذلك
كله عنها شيئا لما ضعفت القيم الروحية العليا في أفراد جماهير
شعبها . ؟ كلا . (ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم
من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به
يستهوئون) .

ونحن العرب المخلصين (وقد أصبحنا على أبواب عهد جديد) يجب
علينا أن نستفيد من أخطائنا في الماضي ونستفيد أيضا من أخطاء
غيرنا . فيتحتم علينا إذن أن نحاول بكل ما لنا من جهد و طاقة أن
نبني حضارتنا الجديدة على نمط جديد خاص بنا مستقل عن غيرنا
ومستمد من أعماق ماضينا وصميم واقعنا ومستقبل امكانياتنا .

ولا يتأتى لنا ذلك الا اذا كان لنا استقلال فكري حقيقي واستطعنا
أن نحرر أنفسنا من قيود هذه المدنية الناجرة التي غذى الكثير منا
بالبائس المسمومة فامتزجت بكيانهم وتلقوا مبادئها على أساس الاف
والعادة وعلى أساس التقليد المطلق . حتى ان كثيرا منا لا يستطيع
أن يتصور فكرة امكانية وجود حضارة افضل منها . فاذا استطعنا
ان نعيد النظر فيها ونتبين ان هذه المدنية ليست هي كل الخير وان
في امكان البشر ان يخطط لنفسه حضارة أخرى جديدة أفضل منها

ووسائل جديدة للسعادة والهناء . واذا استطعنا ان ننقدها نقدا
بريئا على أساس المنطق السليم والتجربة الصحيحة والتجرد من
قيود الاف والعادة والتأثر الخالص بها . اذا استطعنا ان نبليغ
هذه الدرجة من التحرر والانطلاق والثقة بالنفس امكن ان نبني
ونشيد للأجيال المقبلة حضارة كاملة الخصائص والقومات عميقة
الجنور بأسقة الفروع طويلة العمر قريبة من السعادة التي ينشدها
كل انسان في هذا العالم دون ان يكتشف طريقها .

والطريق الى ذلك سهل وواضح وهو ان نتقن من مدينتنا
الحاضرة كل العناصر الصالحة للبقاء . ونضيف اليها عناصر جديدة
تتفق ومزاجنا العقلي وتتناسب ومقتضيات حياتنا وكياننا النفسي
الذي كونه الدهور الفائرة والقرون الماضية حتى آل الى ما آل
اليه في العصر الحاضر ونبعد عنها كل العناصر الفاسدة التي تحمل
في طياتها بذور التآكل والتخلخل والانحلال فحينئذ فقط نستطيع ان
نفخر ونقول للعالم اننا مستقلون وحينئذ فقط نستطيع ان نقدم
للعالم اكثر مما نأخذ منه ونصدر اليه اكثر مما نستورد ونؤثر فيه
اكثر مما نتأثر به .

وان مما يبعث الامل في نفوسنا ويشر بمستقبل زاهر لهذه
النهضة العربية الفكرية المباركة ان اخذ بعض زعماء العرب يبذلون
محاولات موفقة في هذا الميدان وبدأوا يضعون الخطط لأرساء قواعد
جديدة في الميدان الفكري والعقائدي . لا شرقية ولا غربية بل هي
منبثقة من روح المجتمع العربي وتراثه القديم كما يتضح ذلك جليا
من تصريحات بعض القادة المخلصين .

غير ان جماهير شعوبنا لاتزال ترصف في قيود الاستعمار الفكري .
واخص بالذكر منهم المثقفين . وهذا الوضع الذي نحن فيه نتيجة
طبيعية عن تخلف أجيالنا التي سبقت فترة الاستعمار السياسي
والتي عاصرتها . فنحن والحال على ما ذكرنا مضطرون الى ان
نستورد كل حاجياتنا الثقافية من الغرب او من الشرق . ولا يمكن

الفصل الثاني

العقيدة وأثرها في تكوين الحضارات

إن العقيدة هي الحجر الاساسى الذى لا يمكن ان تقوم نهضة ما بدونه . ولا يمكن لحضارة مهما كان نوعها ان تبنى الا عليه .

العقيدة في نظرنا هي وحدها مصنع الخوارق والمعجزات وهي وحدها التي تحكم العالم وتنقله من طور الى طور . نعم هي التي تتصرف في الحياة البشرية افرادا وامما وتملى عليهم سلوكهم وتؤثر في اوضاعهم وترفعهم الى الثريا او تضعهم تحت القرى . فكل حركة او ثورة لا تعتمد على عقيدة قارة مركزة فياضه تحمل من عناصر التفوق والبقاء ما يضمن لها النجاح فمالها الفشل الذريع والافقار المحقق . والثورة الخالية مما ذكرناه ان هي الا (كسر اب بقية يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) او (كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرון مما كسبوا على شيء) — (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) صدق الله العظيم .

فاؤكد واجب علينا معشر هذا الجيل بوصفنا اننا نحن الذين اخذنا على عاتقنا تاسيس مدينة عربية خالدة شريفة وبوصفنا قد اخذنا نخطو في ذلك الخطوات الاولى اؤكد واجب علينا عموما وعلى قادة هذه الثورة العربية الكبرى خصوصا هو ان نعبد ابنائنا ونجمع كل طبقات الشعب على عقيدة واحدة واضحة المعالم سليمة التكوين متينة البناء واقعية الفلسفة شاملة لمجالات الحياة كلها . عقيدة تلمس اوتار هذه الشعوب العربية العظيمة كلها فردا

ان نصد هذا التيار العقائدى الذى تفمرنا به أوروبا الا اذا تمكنا من سد معظم حاجياتنا الثقافية بانفسنا وانتاج ما تستلزمه بلادنا من الخبراء والعلماء والاختصاصيين فى جميع الفنون وخففنا قدر المستطاع من ايفاد بعثاتنا العلمية الى الخارج . والى ان يتحقق ذلك سوف نعترضنا عقبات وعقبات وسوف تمضى مدة طويلة وشاقة .

وفي هذه الفترة سيمتاز المخلصون وسيتبين الفرق بين الصادق والكاذب وبين المناضل المتفانى فى خدمة اهداف شعوبنا العربية وبين المدعى المتخاذل . ولكى نقصر من هذه الفترة الطويلة الشاقة يجب علينا بذل جهود جبارة فى ميدان التعريب وفى تحسين جامعاتنا واعداد الوسائل الكفيلة برفع شأنها حتى تضاهى الجامعات العالمية الكبرى . ويجب علينا المحافظة على ما بقى من تراثنا وتقاليدنا القيم الضاربة بنا حتى لا يستولى عليها ويمحوها ذلك التيار الفكرى والاجنبى عنا . ولا يحسب القارئ اننا ندعو الى الاستغناء عن غربنا والاقتصار والجمود على ما يشتمل عليه ماضينا وانما نعنى بالاستقلال الفكرى ان تملأ الثقة نفوسنا بنفوسنا وأن تكون لنا القدرة الكافية على نقد ما يرد علينا من العقائد والافكار والموازنة والتفضيل بين تراثنا وتراث غربنا حتى نعطى للعالم مثل ما نأخذه منه أو أكثر ونصدر من ثروتنا الفكرية له أكثر مما نستورده منه . واذا ذاك نقول اننا قد بلغنا مرحلة أخرى من مراحل الاستقلال .



فردا وتحركها نحو هدف واحد . فحينئذ فقط نكون قد أعدناها لتقبل الامانة بكامل الرغبة والنشوة والحرارة والكفاءة اللازمة لبناء ما نصبو اليه من مجد وحضارة وعظمة .

اذ لا شك أنك لا تأخذ في بناء قصر الا اذا أعددت له بناء ماهرا ومهندسا بارعا . وكذلك الامر بالنسبة اليها والى الحضارة التى نحن الآن بصدد اعدادها واقامة أسسها .

صحيح أنه قد كان لنا ماض زاهر مجيد وصحيح أنه قد سبق أن أنشأنا مدينة رائعة مشرقة استمرت تنعش العالم بضوئها وحرارتها وعناصرها المنعشة زهاء سبعة قرون . ولكن ليس من الواجب علينا أن نبحث عن العوامل التى بها نجحت تلك المدينة وأنت أكلها لتستمد منها ما يصلح أن يكون مادة لبناء حضارتنا المقبلة .

ان التور الذى كان يستضىء به أقدم انسان على وجه الارض هو نفسه التور الذى نستضىء به فى عصرنا . وهو الذى يستضىء به آخر انسان على وجه الارض . والغذاء هو الغذاء والنسيم هو النسيم . فعناصر البناء هى فى كل زمان . وعناصر التخریب هى فى كل زمان . فالفاعل الطبيعى للعالم البشرى وان كان يمسها من حيث الشكلية فلا يمسها من حيث الجوهرية . اما نحن فنرى ان العامل الوحيد الذى نجحت به حضارة العرب الاسلامية الخالدة هو العامل الذى قامت به وعليه جميع الحضارات البشرية ((هو العقيدة والایمان)). فالعقيدة والایمان معناهما الحب الصادق . معناهما الدوران حول الشئ الذى تعتقده وتؤمن به . وابتارك له عن كل ما سواه وأن تنفى فيه وأنت مستبشر مسرور مستمتع بذلك الفناء .

فاذا اجتمعت أمة على مثل هذه العقيدة وكانت تلك العقيدة وذلك الايمان مركزين على مبادئ معينة وأهداف محددة بلغت أهدافها ونجحت فى سيرها مهما كانت العقبات ومهما طال الطريق .

والعقيدة التى ارتكزت عليها حضارتنا الاولى هى عقيدة الاسلام والايمان بالرسول الاعظم وبما جاء به من الحق من عند الله . وألا فمن هم العرب قبل الاسلام ؟ وما قيمتهم فى العالم قبل مجىء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

ان العرب قد أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا شيئا مذكورا خصوصا فى القرون التى سبقت بزوغ فجر الرسالة العظمى . انهم كانوا طائفتين : طائفة هائمة داخل صحراء الجزيرة تعيش على النهب والسلب والسطو على القوافل والارزاق . شريعتها هى شريعة الغاب . ليس لها نظام جامع ولا قانون رادع . تقتل اولادها ممن الاملاق وتند بناتها خوف العار . وطائفة استقرت فى أطراف الجزيرة خاضعة للملك الفرس والروم مستعبدون فى الارض ليتحصن بهم أولئك الملوك من هجمات أبناء جنسهم فى الصحراء ويستغلونهم فى حروبهم مع أعدائهم حتى جاء محمد بن عبد الله وأفرغ فى قلوبهم عقيدة راسخة واضحة وحدت شتاتهم وألفت بين قلوبهم وجعلتهم أمة واحدة . جعلتهم اخوانا بعد أن كانوا أعداء على شفا حفرة من النار ؛ جعلتهم كثرة بعد أن كانوا قليلا (واذكروا ان أنتم قليل مستضعفون فى الارض تخافون أن يتخطفكم الناس) . جعلتهم أمة وسطا فكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

ان عقيدة الايمان بالله واليوم الآخر هى التى أثرت فى سلوكهم وحولت عوائدهم وتقاليدهم وسيطرت على تفكيرهم وطريقهم معيشتهم فنقلتهم من رعى الابل والبقر الى قيادة أمة كثيرة من أهل التقدم والحضر .

ولقد نجح القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم من تمكين هذه العقيدة التى تعدهم لتمثيل دورهم العظيم فى توجيه العالم بعد معركة مريرة فى منتهى القسوة والعنف استمرت مدة ثلاث وعشرين سنة .

لذلك ترك زمرة من أصحابه ممثلين إيماناً من مفارق رعويسهم الى
لخماس أقدامهم . وكان على رأس هذه الزمرة أبوبكر الذى دافع
عنها حينما تزعزت بموت بطلها وقائدها الاعظم فخاض حروب
الردة حتى رد لها عزتها وسلطانها . وكان منهم عمر بن الخطاب
الذى أرسى قواعدها ورفع بنيانها وضمن لها الفعالية والخلود .

وغرضنا من كل ما ذكرناه أن نضرب مثلاً واقعياً ماساً بنا كل
المساس فى ميدان تأسيس الحضارات وتشبيدها . وهذا المثل الذى
ذكرناه كاف فى الدلالة على مدى اعتماد التكوين الحضارى على
العقيدة الواضحة المركزة وعلى أن التكوين الحضارى مفتقر
وبالذات الى الجانب الروحى من العقيدة افتقاره الى الجانب المادى
منها . ذلك لأن تلك الحضارة الاسلامية المتقدمة الذكر قد برهنت عن
قدرتها على الصمود المعجز والتحدى الخالد ضد كل الزعزاع
والعواصف والاطوار التاريخية الناتجة عن التفاعلات الزمنية
والمكانية فهى لاتزال خالدة ومتوثبة للتهوض والسيطرة على جميع
التأثيرات رغم كل ما تلقته من مهاجمات ومؤامرات وعراقيل طيلة ما
يقرب من أربعة عشر قرناً

واليك مثل آخر يبين لنا كيف أن التكوين الحضارى اذا ارتكز
على العقيدة المادية وحدها لايثمر الثمرة المطلوبة ولايؤدى الى
الفرض المنشود . وهذا المثل يتضح من الحضارة الاوروبية الحديثة
التي لا تزال نعيش فى ظلها وقد أخذنا نستثقل ذلك الظل ونشعر أنه
ظل ذو ثلاث شعب لايفنى من اللهب . فهذه الحضارة نتيجة حتمية
لتطور العالم وتفاعله الطبيعى المتسلسل منذ القدم . هى نتيجة لما كان
سائداً فى أوروبا قروناً عديدة من ضغط الكنيسة وانحراف فى القيم
واختلال فى التوازن الاقتصادى بين الافراد وبين الطبقات بسبب انظم
الاقطاعية الفاسدة وغيرها . فكان من الطبيعى أن يقع رد فعل قوى
وتنفجر الطاقات الكامنة المكبوتة لتحطم تلك الأصار والاغلال التى

كانت تقيدوها . فوقع التحرر والانطلاق واشتد الحنق على الماضى وعار
كل ما يتصل به . وكان مجرد الشعور أو التذكر بأن النظرية قديمة تثير
اشمئزازاً ونفوراً وثررة عارمة فى النفوس . فأتجهت تلك الشعور الى
محاولات جدية وعميقة لاحلال نظم جديدة وقيم مستحدثة محل القديم
المنبوذ فادت تلك المحاولات وتلك التطورات كلها الى
اكتشافات علمية متواصلة وتبدل كامل فى الأوضاع فتطورت وسائل
المعيشة بسبب ذلك تطوراً فجائياً . وحلت الآلة محل اليد العاملة
والصناعة المربحة محل الاعمال البدائية . فنتج عن ذلك كله انحصار
وسائل الحياة البدائية فى ايدى الطبقة المثقفة المتحررة فكانت تعلو
شعباً فشيئاً فى نشوة الانتصار الى الاوج على حين كانت تنحدر
جماهير تلك الشعوب الى الحضيض . فحلت الرأسمالية الجديدة
بوسائلها الفنية العلمية محل الكنيسة والاقطاعية القديمين . فكان
طبيعياً أن يقع رد فعل مرة أخرى لكنه كان هذه المرة سريعاً وعنيفاً
ومستقلاً لوسائل الحياة الجديدة .

انه هو الانفجار الشيوعى الذى نبتت بذوره فى أواخر القرن
الاسع عشر واستغلز واستوى على سوقه فى أوائل هذا القرن
ضرب أطنابه ومدها الى جميع أنحاء العالم المتمدن واستطاع
التهوض على قدميه الثابتين فى مدة قصيرة واستطاع مصادلة
النظام السابق . ولا تزال الحرب سجلاً بين النظامين فى قسوة
وعنف . وكان التسابق فى وسائل التدمير موازياً للتسابق فى وسائل
التعمير فكان الخوف والرعب يسودان هذا العالم ويهددان فى كل
حين فتحطمت الاعصاب وتنفس العيش ولم يستطع الانسان أن
يستلذ هذه المدنية التى أثمرتها جهوده العريقة فى القدم . فها هو
يبحث عن السعادة وعن حياة أفضل كما كان يبحث عنها أوائل
أجداده فى المغاور والكهوف . وعلى ضوء ما أوردناه يجب أن نبين
عن الأسس الصالحة لحضارتنا الجديدة التى نسعى فى اقامتها
لتضمن لها الازدهار وطول البقاء .

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار (صدق الله العظيم .

فقد عبر القرآن على عاداته عن العقيدة أو المبدأ حسب التعبير العرفي الحديث . عبر عن ذلك بالكلمة وشخص المثل تشخيصا حسيا يستقر في الازهان ويرتقى بها الى الدرجة العليا من العمق والاستقرار . فقد ضرب مثلا واضحا للعقيدين ، فمثل للعقيدة الصالحة بالشجرة الطيبة الثابتة اصولها والنباسقة فروعها ، بحيث يكاد يستحيل على الزعازع والاعاصير اقتلاعها ، ومثل للعقيدة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي لا تحميها عروق ضاربة في الارض ولا فروع ممتدة في السماء . فذلك مثل واضح للعقيدين الطيبة الصالحة للبقاء والخبيثة التائفة التي لا تستطیع أن تبقى أكثر من حال . فعلى مقدار نوع العقيدة التي نختارها لأنفسنا وعلى مقدار قوتها فينا واحتضاننا لها وعلى مقدار صلاحيتها للبقاء يكون نجاحنا في بناء وتشيد حضارتنا العربية الكبرى .

ولا شك أن من أهم جوانب العقيدة أو النواة التي يحاول ساسة العرب أن يقيموا حولها نهضتنا المقبلة هي ما نسميه بالقرمية العربية . ذلك لان العرب لما أخذوا يفيقون من سباتهم العميق تلقنوا حولهم واكتشفوا أنفسهم واكتشفوا نسبتهم الى الامم المحيطة بهم وشعروا بأن فيهم قوة كامنة يمكن أن تبرز الى الوجود وتعمل عملها في القوى البشرية المختلفة . فكان لابد لهم من عروة وثقى يعتمصون بها جميعا كي تساعد على النهوض والاتحاق بالامم المعاصرة لهم والتي سبقتهم في ميدان الحياة بمسافات شاسعة ولابد لهم من معراج سامق يعينهم على الصعود الى أعلى الدرجات . ولابد لهم من قبس يضيء لهم الطريق الشائك الطويل المدى . فكانت تلك العروة الوثقى وذلك المعراج السامق وذلك القبس المضيء هو القومية العربية .

الفصل الثالث

القومية العربية والاسلام

لقد رأينا أن العقيدة هي الاساس الوحيد للتطورات البشرية كلها وأن المادية المفرطة والروحانية المتطرفة والراسمالية الحارة المحرقة والماركسية السلبية الجامدة والتصلب الديني المنحرف المرهق والاحاد التائه الحائر المهلك وما بين ذلك من النزعات الاعتدالية السليمة وغيرها من الانظمة المختلفة التي لا تزال تدفع بالبشر الى الامام لا باعث له الا العقيدة والايمان .

اننى لا أومن بشيء بعد الله ايماني بأن العقيدة والايمان هما كل شيء في هذه الحياة . ونجاح العقيدة متوقف على امرين اثنين على مقدار عمقها وقوتها وعلى مقدار وضوحها وصلاحيتها للبقاء .

فالعقيدة الضعيفة الخافتة مهما كانت صالحة للبقاء لا تؤتى ثمرتها ولا تعمل شيئا في الحياة . والعقيدة القوية المؤثرة التي تحرك وتوجه وتفيض حيوية ونشاطا اذا خلت من عناصر الصلاحية للبقاء فلا تلبث أن تتبخر كما تتبخر الثلوج المتراكمة عندما تتسلط أشعة الشمس عليها . وتلك العقيدة الخاوية من عناصر الصلاحية للبقاء انما هي تهوس وتهور وزبد أجوف لا يلبث أن يتلاشى . (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) — (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون

ولا يفوتنا أن نذكر أن العرب قد فتحوا أعينهم على العالم في عصر يدعى بأنه عصر القوميات وذلك في أواخر القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن . فهم إذن متأثرون إلى حد كبير بالأمم المتخلفة التي تحاول مثلهم النهوض على أقدامها فكان كل أمة من الأمم التي حولهم تحاول النهوض على أساس قوميتها الخاصة تخلصا من ضغط الاستعمار المسلط عليها من قبل الأمم التي هي أرقى منها . ولقد أصبحت كلمة القومية العربية هي الأغنية التي يتغنى بها أبناءنا والانشودة التي تلهب حماسنا وشعارنا الذي منه تبتدىء نقطة انطلاقنا . ولقد أصبحت مثارا لفخرنا واعتزازنا . ولكن ما معنى القومية العربية وما هو مدلولها الحقيقي ؟ وما هو الحد الجامع الذي يشخص ويوضح صورتها ويفصلها ويميزها عن كل ماعداها؟

تلك هي الأسئلة التي كانت تنتظر الجواب . غير أن هذه الكلمة التي بدت في أول الأمر غامضة ما لبثت أن نوقشت في الكتب والمجلات وفي المعاهد والجامعات . وكانت الغاية من مناقشتها تحليل معناها ومدلولها الفلسفية بالنسبة إلى الأجيال الصاعدة حتى نرسى نهضتها على قواعد متينة لاتقبل التضعف ولا التفتيت .

فكلمة القومية العربية كلمة غامضة مختلفة المفاهيم . فقد تطبع هذه الكلمة في ضميرك صورة غير الصورة التي تطبعها في ضميري أنا وقد يفهم منها غيرنا غير الذي فهمناه منها جميعا وذلك ما يحتم علينا أن نحدد مدلولها ونكون على بصيرة من مفاهيمها المختلفة انشيد مستقبلنا ونربى نشأتنا على فلسفة كاملة التكوين مشرقة المعالم متينة القواعد والاركان .

فإذا قلت أنا عربي واعتز بعرويتي وأدافع عنها إلى آخر رمق ولا أعدل بها شيئا سواها . فهل تعنى باعتزازك هذا انتسابك إلى العرب الاقتحاح الأولين وإنك من سلالتهم ومن عرقهم أم أنت تعتز بأرضك العربية التي نشأت فيها وافتشتك بنسبها وغذتك بمنهجياتها

أم أنت تعتز بلغتك التي تنطق بها وتقاليدها التي ورثتها وثقافتك التي تأثرت بها؟ أم أنت تعتز بمجموع ذلك كله؟ إذ لا ريب أن دفاعك عن شيء ما وإيمانك به مبني على مقدار اعتقادك لصلاحيته وأفضليته عن ما عداه .

أما نحن فنقول أن الاعتزاز بعنصر أو عرق مهما كان والدفاع عنه على أساس الاعتقاد بأنه أفضل من سواه إنما هو ضرب من الرهم والغرور وضرب من الجهل والانحطاط . وهذا هو عين التمييز العنصري الذي نحاربه بكل طاقاتنا والذي لا يقره منطق سليم ولا قاعدة علمية ولا شريعة الإلهية . على أن العرب أنفسهم في العهود السالفة لم يكونوا يقيمون كبير وزن لهذا الاعتبار . ولا يعد العربي عندهم هو من ينتسب إلى أقدم عربي في العالم فقط . والأقمن ذا الذي ينكر عربية بشار بن برد الذي هو من فحول الشعراء — وعبد الله ابن المقفع الذي يعد من فحول الكتاب — ومحمد بن اسماعيل البخاري أشهر المحدثين على الإطلاق — والفيروزبادي صاحب القموس المحيط ومئات من أمثالهم الذين استعربوا في العصر الجاهلي وفي العصر الإسلامي على السواء . وما لنا نذهب بعيدا ؟ . اليس رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وقريش التي تعد ذروة السنم بالنسبة إلى جميع العرب . اليست هذه القبيلة من العرب المستعربة ؟ اليسوا من بنى اسماعيل بن إبراهيم الذي هو عجمي بإجماع المؤرخين ؟ .

وما الفرق بين أن يستعرب إنسان قبل أربعة آلاف سنة وبين أن يستعرب في القرن العشرين . بل نقول أن السلالة العربية الخالصة لا وجود لها في عصرنا هذا لأن المصاهرة والمهاجرة والمخالطة المستمرة قد قضت تماما على هذا الاعتبار لا سيما بعد الفتح الإسلامي . ونستطيع أن نقول أن جميع العرب الموجودين في عصرنا هذا تقريبا إنما هم من العرب المستعربة . فلا اعتزاز إذن

بالانتساب الى هذا العنصر المعين انما هو هراء ووهم لا يبنى على اساس صحيح . ولا اعتبار ايضا في العروبة بالجانب الوطنى لان مجرد نشأة انسان ما في أرض عربية لا تجعله عربيا ما دام مجردا من خصائص العرب ومقوماتهم كما أن العربى الذى ينشأ ويتربّع في أرض عجمية لا تجرده تلك النشأة من عربيته ما دام محتفظا بخصائصه الاصلية . على أن الوطن العربى الاصلى لا يتجاوز شبه الجزيرة العربية . وهل يقال ان العرب الذين خرجوا من تلك المنطقة حاملين لخصائصهم وتقاليدهم ونشروها في البلاد التى نزلوها وعربوها أهلها ومحت تلك الخصائص التى نقلوها خصائص البلاد التى عربوها هل يقال أن هؤلاء هم الذين استعجموا في حين أن الواقع يصرح بأن تلك البلاد هى التى قد استعربت حيث نسبت لغتها ومعتقداتها وعاداتها وآدابها واستبدلت ذلك كله بما حملت العرب النازحون من دين ولغة وآداب وعادات .

ومما ذكرناه يتبين لك أن العروبة أو القومية العربية لا تبنى الا على الجانب الثقافى فقط . فلا عبرة عندنا بالسلالة ولا بالوطن . فلو أن شعبا من شعوب افريقيا أو آسيا مثل نجيريا أو أندونيسيا اعتنق لغة العرب واستبدلها بلغته واستمد آدابه وتقاليده من الثقافة العربية لعد من الشعوب المستعربة وانطبقت عليه كلمة القومية العربية .

وقد وقع ذلك فعلا بالنسبة الى كثير من الشعوب ولا أدل على ذلك من اعتناق الشعب السودانى للقومية العربية وانخراطهم في جامعتها . واذا قلنا المعتبر في هذا المقام هو الجانب الثقافى فقط فاننا نعنى بالثقافة اللغة والدين والتقاليد الموروثة . واذا صح أن يكون تفاضل بين شعب وشعب وبين انسان وانسان فانما يكون من حيث أنواع الثقافات ومقاديرها . واذا صح أن نعتز بالثقافة العربية ونستمسك بها ونستبدلها بما عداها من الثقافات الاخرى

فلخصوبتها وسعتها وقابليتها للتطور ولما أفرغ عليها الاسلام من حيوية لا نهاية لها . ولئن انتقد بعض الناس اللغة العربية فوصفوها بالضيق والعقم والقصور فليعدهم عنها وضيق عطنهم وقصور باعهم فيها . ان الثقافة العربية لم تجد بعد من يقدرها حق قدرها وان كانت بوادر العودة اليها واكتشاف أسرارها قد أخذت تلوح في الافق . ذلك لان الاستعمار الاوروبى لم يستول على الاراضى الا بعد أن استولى على الافكار . والاحتلال الفكرى دائما يسبق الاحتلال العسكرى والادارى . أما وقد أخذت قيود أوروبا تخف وطأتها عنا شيئا فشيئا فقد أصبح الجو ملائما لان نستغل ما في ثقافتنا من أسرار كما أصبح ملائما لان نستغل ما في أرضنا من كنوز . ولعل هذا التحمس العظيم وهذه الدعوة المستمرة للقومية العربية سيكون من نتائجها الحتمية تذوق ثقافتنا واعنائها والتمكن منها .

نعم ان كثيرا من الذين ينادون بهذه القومية ويدعون الايمان بها لا يزالون يستمدون ثقافتهم من أوروبا فعاداتهم ومعتقداتهم وطريقة معاشهم بل ولغتهم التى ينطقون بها كل ذلك أوروبى أكثر منه عربى . ولكن هذا لا يبعث على التشاؤم واليأس لان الانتقال من مبدأ الى مبدأ لا بد له من استهلاك مدة طويلة من الزمن على شرط أن يجد هذا المبدأ الجديد من ينعشه ويغذيه حتى يتمكن تدريجيا في النفوس .

وفى نظرنا أن القومية العربية لا تستقر جذورها في شعوبنا ولا تؤدى الى النتيجة المطلوبة الا اذا اقترنت وتركزت على الدعوة الى الرجوع للقواعد الاسلامية الصحيحة وترسيخها . فان العربية لم تكسب ولن تكسب خلودها الا بواسطة هذا الدين القويم . ولولاها لكانت ربما قد فئيت منذ زمن بعيد أضف الى ذلك أن الحضارة الحديثة قد قامت على اللغات الاجنبية . ونحن العرب لابد لنا من

مسايرة الركب المتدفع بسرعة الى الامام جنباً الى جنب في جميع الميادين . فلا يمكن لنا أن نعود الى الوراء فمآدام الطريق معبداً أمامنا ومادامت حاجتنا الحضارية كلها متوفرة في تلك اللغات فما الذي يحتم علينا تجشم المشقة في بعث لغة قد مضى أهلها وأصبحنا في غنى عنها . هذا ما يقوله خصوم بعث اللغة العربية وأحيائها .

ومن ثم نرى أن الدعوة الى نشر اللغة العربية وبعثها من جديد لا تنجح الا اذا كانت جزءاً لا يتجزأ من الدعوة الى نشر ثقافة العرب القومية بمعناها الواسع وأحياء كل ما يمكن أحياءه من تراثهم الفكري والأدبي . فان علاقة اللغة بالفكر هي علاقة المادة بالروح أو الظرف بالمظروف . فلا بد من التناسق والانسجام التام بينهما . وفي نظرنا أنه اذا حاولنا أحياء لغتنا مع بقائنا متعلقين تعلقاً مطلقاً بالاتجاه الفكري والأدبي للغرب فاننا سننتعب كثيراً ونجنى قليلاً ويكون مثلنا كمثل من يحاول أن يشحن بالتمر ظروفاً وضعت لتعباً بالخمر .

وليس معنى ما ذكرناه أنه يجب علينا أن نبقي مقيدين بالمآدار الذي كان يدور فيه امرؤ القيس أو الأخطل أو المتنبي . كلا أننا نعتقد أن قانون النشوء والارتقاء سار على اللغات كما هو سار على جميع ما في الطبيعة من أشياء . فلكي تعيش لغتنا وتنشأ اذن يجب تطويرها وترقيتها وتطعيمها بكل ما يناسب واقعنا وعالمنا الحاضر .

فالتطعيم والتطوير شيء وارغام الاجيال الصاعدة على تحمل المتناقضات شيء آخر . ولعل كثيراً من أبداء عصرنا الذين ينفقون على اللغة العربية ويستقلونها ويصفونها بالعقم وبعد الصلاحية للبقاء إنما يفعلون ذلك لان نفوسهم تكونت تكويناً أوروبياً صرفاً . هذا من جهة ومن جهة أخرى أصبحوا مرغمين بمقتضى ظروفهم وأوضاعهم على التلصق باللغة العربية وإفراغ تلك الثقافة التي

كونتهم فكراً وتلك المعاني الغريبة عن أذواقهم النفسية إفراغ تلك المعاني هكذا بدون تحويل لها الى ما يناسب تلك الأذواق في قوالب وأساليب اللغة العربية . فهم اذن يجدون أنفسهم دائماً في حالة تناقض مستمر . أضف الى هذا أن تخلف العالم العربي مدة قرون كثيرة فكراً وأدبياً وسياسياً واقتصادياً وغير ذلك من ميادين الحياة . هذا التخلف الشامل كان ضرورياً أن يستلزم التخلف في اللغة التي ينطقون بها . فالعقم الذي ينسببه الكثيرون الى اللغة العربية اذن ليس عقماً ذاتياً وليس ناتجاً عن طبيعة تلك اللغة نفسها بل هو ناتج عن تخلف أهلها في ميادين الحياة . فهو عارض خارج عن طبيعتها .

فاللغة مثلها كمثل الشجرة ان سقيتها انتعشت فاذا هربت تركت البذور التي تحفظ نوعها . وان أهملتها ذبلت وجفت وأصبحت هشيماً تذروه الرياح . ونحن نعتقد أن اللغة العربية قد أمدها دين الاسلام بمعين لا ينضب أبداً وأنه قد أكسبها الخلود أو برهن على أنها مستعدة من حيث طبيعتها للخلود . والاسلام هو الذي اكتشف ما تحتوى عليه العقلية العربية من الطاقات الخلاقة الهائلة التي لا نهاية لها . لذلك استطاعوا أن يفزوا بلغتهم معظم القارات الثلاث كلها في مدة قرن من الزمن أو تزيد قليلاً . واستطاعوا أن يسودوها على كثير من اللغات وأن ينقلوها من طور البدائية الى طور الحضارة المراقية بكل ما تقتضيه كلمة الحضارة من معنى فهذبوا تلك اللغة وطوروا بها مراحل كثيرة من حيث خطها ومن حيث أساليبها ومن حيث انتقاء كلماتها كما وضعوا لها قواعد ثابتة تحدد أطارها وتيسر فهمها وترفع الكلفة عن طالبها . ولم تكن اللغة عائقاً للعرب يوماً من الايام عن التقدم في أي ميدان من ميادين الحياة . ولغة هي لسان ابن رشد وابن سينا وأبى حامد الغزالي وهي لسان جابر بن حيان وأبى نصر الفراءى وابن الهيثم وهي لسان المتنبي والجاحظ وابن العميد . لغة هي لسان هؤلاء كلهم وألوف من أضرابهم لا يمكن أن يصفها بالعقم الا من كان هو نفسه عقيماً وفي

الدرجة الاولى من العقم . او لا يكفى في الدلالة على صلاحية لغتنا للخلود ما نشاهده من أن اللغات اللاتينية واللفة الفارسية والتركية والعبرية وغيرها لا تزال زاخرة بالكلمات التي أمدتها بها لغتنا العربية ؟ .

فأمر استرجاع خصوبة لغتنا اذن متوقف فقط على مقدار ما يمكن أن نسترجعه من الخصوبة الفكرية لنا كعرب وعلى مقدار ما يمكن أن نسترده من شخصيتنا الثقافية . وكلما أصبحنا أشد اعتزازا وإيمانا بقوميتنا وبشخصيتنا المستقلة رأينا أنفسنا أقدر على إخصاب لغتنا وجعلها أشد ملائمة للحياة . وحيث أن القومية العربية مبنية عندنا على الجانب الثقافى فقط وحيث أنه لولا الاسلام لما كان هناك ثقافة أو حضارة عربية تذكر وحيث أن اللغات الاوروبية الحديثة أصبحت من الخصوبة والفنى بحيث تستطيع أن تمدنا بكل ما نطلبه منا حاجتنا الحضارية الحديثة نظرا الى ذلك كله نرى أن العربية في عهدنا الحاضر لا يمكن أن تنتعش وتزدهر وتزرى ثمارها بدون ازدهار الثقافة الاسلامية وانتعاشها من جديد . كما أن الدين الاسلامى لا يمكن أن ينتعش ويزدهر بدون القومية العربية فعلاقة أحدهما بالآخر هي علاقة الجسد بالروح . فاذا فصلنا القومية العربية عن الثقافة الروحية والتراث الفكرى اللذين بهما أمكن أن نرتقى الى ما بلغناه من مجد وسؤدد واذا تنكرنا لماضينا وانسلخنا منه تماما فعلى أى أساس ستعتمد قوميتنا العربية الجديدة ؟

ان السلم الوحيد الذى ارتقى به العرب الى الدرجة التى بلغوها انما هو الرسالة العظمى . وأن أبا القومية العربية الحققة ومؤسسها الاول هو محمد ابن عبد الله رسول العرب والعجم جميعا . ومن تدبر القرآن رأى الى أى حد كان يثير نعمة القومية العربية ويثير فيهم غريزة الفخر والاعتزاز متوسلا بذلك الى دفعهم لحياء

تلك المبادئ السامية التى جاء بها والى نشر نور الله فى مشرق الارض ومغربها . (ولقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) (وأنه لذكر لك ولقرمك وسوف تسئلون) — (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

وفى نظرنا أن القومية العربية اذا اريد لها أن تمتد فورعها وتضرب اطنابها فى الارض يجب أن يسلك اليها من طريق غير مباشر من طريق الدعوة الى نشر المبادئ الاسلامية والايمان بها والعمل المجاد لها . فحينئذ تنتشر الروح العربية وتسترد مجدها تلقائيا كما وقع ذلك بالفعل فى عصر ازدهار الحضارة العربية وانتشارها فى الارض . وخلاصة القول أنه لا يتم نجاحنا فى استرداد المجد الذى نصبو اليه كعرب الا اذا اتخذنا القومية العربية وسيلة لا غاية بذاتها .



الفصل الرابع

الاشتراكية والاسلام

ان الاشتراكية التي نريد أن نتحدث عنها في هذا المقام هي نوع خاص من أنواع ما تنطبق عليه كلمة « الاشتراكية » . هي الاشتراكية العربية كما نفهمها — هي ما يضمن للفرد شرفه وكرامته وللمجتمع تطوره وسلامته — هي ما يقيم توازنا دقيقا بين الفرد والمجتمع بحيث لا يصبح أحدهما مجرد آلة للآخر — هي ما نسميه بالعدالة الاجتماعية .

ولقد سبق أن أشرنا في الفصول السابقة الى أن الفلو في النزعة المادية التي سادت العالم المتمدن في القرنين الماضيين وإيمانه بأن المادة هي كل شيء في الحياة وانجذابه اليها بالكلية أشرنا الى أن ذلك هو الذي ألجأ الطبقات المحرومة الى أن تثور . وألجأ الطبقات الكامنة في الجماهير البشرية الى أن تتفجر . فبرز النظام الشيوعي الى الوجود قويا كالسيل الجارف لا يردده شيء . ولقد كان هذا النظام نتيجة طبيعية لما سبقه من طغيان الرأس مالية والنهم التوسعي والتسابق العنيف الى الثراء الغير المحدود واستغلال الإنسان للإنسان بصفة بشعة . لكن ما لبثت الإنسانية أن تفتنت لخطئها وأحسست بخطورة مصيرها وتبين لها أنها تعالج خطرا بخطر لا يقل عن الخطر الذي تعالجه فداحة وهو لا . أحسست بأن المذهبين المتطرفين في الخطورة سواء . فاخذت تبحث عن نظام أخير يقيم على قواعد الفطرة ويلبي مطالبها ويلئم سنة الله التي لا تحويل لها فاهتدت بعد حيرتها

وضلالها الى أنواع من الانظمة الاقتصادية . المعتدلة التي منها اشتراكتنا التي نحن في صدد تخطيطها . وهكذا فإن الإنسانية مستهدية تجاربها القاسية وستقودها الاخطاء التي تتخطب فيها الى قوانين الفطرة السليمة والاعتدال المطلوب في كل الميادين وهذا هو سر قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)

والأدلة كلها تشير في عصرنا الى أن الطرفين المتنازعين : الرأسمالية والشيوعية — يتدرجان تلقائيا نحو الالتقاء في الوسط .

اذن فستسود الاشتراكية العادلة في النهاية وستقضى شيئا فشيئا على المذهبين المتصارعين معا . لان العاقبة دائما للفطرة السليمة . وما التجارب المختلفة التي تخطوها الإنسانية ومما التخطبات التي تعانيتها الا طريق طبيعي لاهتدائها واستقرارها اخيرا على قوانين الطبيعة التي لا تتخلف . وانما قلنا ان الاشتراكية العادلة هي التي ستكون نهاية المطاف لهذه البشرية الحائرة لان المذهب الرأسمالي الهستري الذي يتخبطه الشيطان من المس قائم على أساس استغلال غريزة من غرائز الانسان المختلفة أكثر مما يجب . ولقد استغل غريزة حب الاقتناء والادخار وضاعف استعمالها وغذاها فتمت ونشطت نشاطا مضاعفا على حساب غرائزه الاخرى التي تضاعل مفعولها وضعف أثرها فاختل توازنه وشقى من حيث يطلب السعادة . أما المذهب الشيوعي فقد كان يحاول قتل الغريزة الضرورية لتقدم الانسان وتطوره الطبيعي . كان يحاول محوها من أصلها ناسيا أن الغريزة لا تموت ولا تنمحى ما دام صاحبها في قيد الحياة . واذا اظهرت فلا بد أن تبرز الى الوجود وأن تعلن عن نفسها بشكل أو بآخر . وإن ذاك يحدث الانحراف واختلال التوازن ويقع المحذور الذي لا مفر من وقوعه فيشقى الانسان كذلك من حيث يطلب السعادة .

فقد رأيت اذن ان النتيجة النهائية للمذهبيين واحدة . فسعادة الانسان متوقفة الى حد كبير على اقامة توازن دقيق بين غرائزه المختلفة واستغلالها كلها بنسب معينة مع تنظيمها وتوجيهها ومراعاة التوازن بينها بحيث تؤدي مطالب الحياة بطريقة تنفع ولا تضر .

انظر كيف مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم غرائز الانسان بالنار التي تشتمل على قوتين : قوة الاضاءة والاشراق وقوة الحرارة والاحراق . وشرح تنظيمها وتوجيهها على اساس مبادئ الشريعة السماوية وشرح كيفية الانتفاع بتلك الطاقة النارية بدون القورط في مضرتها .

قال عليه الصلاة والسلام : (مثلى ومثلكم كمثلى رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعلت هذه الدواب والفراس التي يقعن في النار يقعن فيها فانا آخذ بحجزكم^(١) وأنتم تقتحمونها) . فقد مثل الانسان بالفراسة ومثل ميوله وغرائزه بالنار المضيئة المحرقة . ومثل الشارع بالموجه الحائل بين الانسان والاحترق بتلك الغرائز . واظن أنك قد اكتشفت هنا سرا من أسرار الحياة ، وهو أن الامم الرأسمالية لا تعيش غالبا أكثر من ثلاثة أو أربعة أجيال . ذلك لانها تعتمد على استغلال غريزة معينة وتتوجه اليها بالكلية وتهمل شأن غرائزها الاخرى فتتعطل وظائفها تدريجيا . والوظيفة تنشط بالاستعمال وتعطل بالاهمال . فياكل تلك الامم الترف والرفاهية ويرهقها الاعياء ويسرى في دماها الكسل والبلادة فيصيها الضعف والانحلال . وذلك هو المهرم والفناء .

اترى بعد كل ما ذكرناه أن الاشتراكية تقييد لحرية الفرد وتقييد للطاقات الحية الناشطة . كلا انها توجيه لا تقييد . واذا كان فيها

(١) الحجز بضم الحاء المهمله وفتح الجيم ، جمع حجرة — وهى موضع الحزام .

شئ من التقييد فهو تقييد للفرد من أن يستغل المجتمع كما يشاء . كما أنها تقييد للمجتمع من استغلال الافراد . فهى اذن المحافظة على التوازن الذى يجب أن يكون بين الفرد والمجتمع وهى العدالة الاجتماعية بمعناها الصحيح . ومن هنا نعلم أن دين الاسلام اشتراكى بطبيعته اذ ما جاء الا ليحارب الطغيان المادى بجميع اشكاله وأنواعه . فلنسا بحاجة الى أن نسوق آيات من القرآن او احاديث من السنة لنستدل بها على اشتراكية هذا الدين . فهى روحه وقوامه وخاصة من خصائصه الذاتية . فهو الذى اقام قسطاس العدل بين الناس وهو الذى علم البشر العدل والحرية والمساواة .

— (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات واتزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

نود أن يقف القارئ متأملا كلمة الميزان وكيف استعملها القرآن للتعبير بها عن الشريعة المفراء لأن الشئ الذى أنزل على الرسل طبعيا لم يكن الآلات والموازين التى توزن بها المادة لتحديد مقاديرها — بل المقصود هنا قطعا هـ : ما أنزل على الرسل من المبادئ الشرعية والمبادئ السماوية التى ترجح وتحدد وتشخص بدقة ما تختلف فيه العقول البشرية على اختلاف أنواعها .

فالمسلم الذى يمتلك العقارات التى تقدر بالملايير ويخضع آلاف من البؤساء والجائعين لسلطانه فيعز من يشاء ويذل من يشاء . هذا الشخص مناقض بطبيعته طبيعة الاسلام الذى يدعيه . اذ لو كان مؤمنا حقا ما بات شعبانا وجاره جائع . ومن الجهل أن يقال ان من الأغنياء من يعامل أجراءه معاملته لأصدقائه ويوفى أجورهم وينعم عليهم بالصدقات لانه ما زاد على أن أمدهم بالتخلف والاحتياج وبروح المهانة والتبعية الدائمة . ثم ان القرآن نفسه قد نقض تلك النظرية الخاطئة فجعل البغى والطغيان نتيجة حتمية لكثرة المال ووفرة

الثراء . (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) — (أن الإنسان ليطفئ أن رآه استغنى) .

وإذا كان هذا الاقطاعي يبذل جهوده في جميع الاموال شفقة على الفقراء والمساكين وانتشالا لهم من البطالة والبطوس وانقاذاً لهم من الحياة الضائعة فلماذا لا يشركهم في أمواله وجهوده حتى يقتسموا الربح والخسارة . معاً

كلا انما هو حب التفوق والغلبة والتملك والسيطرة ذلك هو ما يثقل له كل عقبة ويسهل له كل صعب . وهذه الظراوة التي يخدمها حب التملك والسيطرة في الانسان ان لم نقلم أظفارها فستقضى عليه وعلى القيم الروحية والانسانية التي خصه الله بها . (ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلا لينبذن في الحطمة) — (رأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراعون ويمنعون الماعون) صدق الله العظيم .

أرأيت الى أي حد كان الاسلام يقسو على أولئك الذين لاهم لهم في الحياة الا جمع الثروة وتكديس الاموال والارتقاء على جهود الفقراء والمساكين . فهو لم يكتف بان اعتبر صلاتهم لله لغوا بل اعتبرها وبلا عليهم لانهم يتوسلون بها لادعاء التدين وهم ساهون عنها وعن الآثار الانسانية المطلوب حدوثها فيهم بسبب تلك الصلاة .

يقول اصحاب مذهب التحرر الاقتصادي ان البشر مختلفون في مقدار استعدادهم العقلي . فنجاح بعضهم في بلوغ درجة عليا في الميدان الاقتصادي دليل على مقدار تفوقهم المعنوي والعلمي على غيرهم والا فلماذا يكون أحد أغنى من الآخر لكن هذه النظرية الخاطئة قد قالها الذين من قبلهم فهي متصلة في النفوس منذ القديم .

قال قارون : (انما أوتيته على علم عندي) . (وقال الذين

كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا في ضلال مبين) .

وعلى أساس تلك النظرية الخاطئة كان الاثرياء يعتقدون في نفوسهم العظمة والمقداسة وكان الناس يعتقدون ذلك فيهم أيضاً . فكانت الحياة كلها تقاس بمقياس الثروة والمادة . غير أن القرآن يعتبر بسط الرزق وتضييقه آية من آيات الله .

(أو لم يروا أن الله بسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يومنون) .

فليس الرقي المادي أبداً دليلاً على الرقي الأدبي والعلمي . ولو لم يكن بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي الا هذا الفرق لكفى .

فالنظام الاشتراكي تقدس فيه الثقافة والمعرفة ويكونان هما المثل الأعلى للجميع . والنظام الرأسمالي تقدس فيه الثروة والمادة وتكونان هما المثل الأعلى للجميع . ومن ثم يتبين للقارئ أن الفرق بين النظامين فرق أصيل وعميق فهو أوسع أبعاداً من أن يكون فرقاً بين مذهبين اقتصاديين فقط بل هو فرق بين نمطين متميزين كل التميز من الأنماط الحضارية ، فالانتقال من النظام الرأسمالي الى النظام الاشتراكي انتقال من حضارة متكاملة الفلسفة الى حضارة أخرى متكاملة الفلسفة كذلك من جميع جرائبها . وحيث أن الدين الاسلامي نزل ليحرر العباد من عبادة العباد وحيث أن من أهدافه الأساسية ترقية الانسان ثقافياً وخلقياً فتقديس الثقافة ومكارم الأخلاق كان بديهياً أن يتعارض مع المذهب الرأسمالي الذي يؤدي بطبيعته الى تقديس المادة .

وبالتالي الى تقديس أربابها . وبالجمله فان كل شبهة انصقت بالاسلام زوراً وبهتاناً يمكن أن تنتشر بها بعض النفوس المعوجة وتعلق بها الا أن يدعى مدع أن الاسلام يساند النظام الاقطاعي الحاضر

الذى يسمى بالاقتصاد الحر في صورته التى نشاهده عليها . فان ذلك أبعد ما يكون من المعقول .

ومن المؤسف أن تاطخ هذه التشريعة البيضاء على أيدي الذين يدعون الانتساب إليها والذين كان المفروض أن يكونوا أشد دفاعا عنها وأعمق فهما وتصورا لها . فكثيرا ما يفسرون الآيات القرآنية على غير وجهها جهلا منهم بالمقاصد التشريعية العليا وتأثرا بالميل والاضلاع المحيطة بهم . وقد وقع كثير من ذلك خاصة في الآيات التى لها صلة بالنظام الاقتصادى مثل قوله تعالى (نحن قمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) — وقوله : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) . هذه الآيات وأضرابها يستدل بها بعض العامة على أن النظام الاقتصادى للإسلام هو النظام الرأسمالى على حين أنها أقرب للدلالة على عكس ما يدعون . فهى تذكّر النهم والانكباب على اكتناز الأموال وتثير في الإنسان المسلم الرحمة وتوجهه إلى العمل الإنسانى الذى لا عوطف له إلا رحمة الله . (ورحمة ربك خير مما يجمعون) فهو يطمئننا إلى أن الرزق مقسوم فلا معنى للجري وراء المعيشة بلهف ولأث . أما قوله (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) فهى التحريف أن نغمره بما يطمئنه النظام الرأسمالى فقط من استغلال وتسخير الإنسان للإنسان . فان كون الناس على تفاوت كبير في المراتب العقلية لا يمكن أن يقضى عليه أى نظام من النظم الاقتصادية ولا صلة له بتلك النظم إطلاقا لان الإنسان في النظام الشيوعى مثلا لا يمكن أن تكون أفرادهم كلهم على مرتبة واحدة . فهناك العامل البسيط وهناك الرئيس والمدير وهناك الحاكم والمحكوم . ومن ثم يكون المسخر والمسخر . فالتفاضل بين أفراد الإنسان إنما يكون من حيث الذكاء وقوة الإرادة وغير ذلك من

الاستعدادات المختلفة وهو الذى يجعل من الإنسان قائدا ومقردا .

واذا قيل ان القرآن لم ينص قط على ما يقتضيه النظام الاشتراكى من تحديد الملكية ولا على جوازه قلنا ولم ينص كذلك على تحريم التحديد . فتحديد الملكية وإطلاقها من قبيل المسكوت عنه شرعا . وما كان كذلك كان النظر فيه إلى الشعوب الإسلامية وقادتها . فيباح أو يمنع أو يفرض حسب ما تقتضيه المصلحة العامة وحسب ما توجه الظروف والملابسات . ومن السذاجة والتطفل على إصدار الأحكام الشرعية أن يستدل بالنصوص التى تحرم الفصب والسرقة والخيانة في هذا المقام . لان علاقة الدولة بالشعب لا تقاس بعلاقة الأفراد بعضهم ببعض . فان الدولة لا تتكون إلا على أساس رعاية مصالح الشعب عامة . لهذا ساء لها أن تضع الضرائب على الرعية وتلزمها بدفعها . على أن القرآن قد أشار في آيات كثيرة إلى مشروعية التحديد مثل قوله (وانفقوا مما جعلكم مستخفين فيه) وقوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) . فقد حكم في هاتين الآيتين بأن المالك الحقيقى للمال ليس هو الشخص الذى جمعه بل هو الله . ولا شك أن خلفاء الله في أرضه هم قادة هذه الشعوب ومسيروها . اللهم إلا أن أساءوا التصرف واستغلوا خلافتهم لأغراضهم الدنيئة . فان عقابهم يكون من حيث أساءتهم واستغلالهم لمركزهم لا غير . ومما يشير إلى اشتراكية الإسلام آية سورة الحشر (ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) . ومدار القضية كله على هذا التعايل (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) فالإسلام أذن يحاول أن يحد من تكديس الثروات وانحصارها في طبقة خاصة . وليس علينا أن نورد جميع الآيات والاحاديث الواردة في هذا المقام . ولكن هل تصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من قرر التاميم وأمر به ؟ انه يقول « الناس شركاء في ثلاث : الماء والحطب والكلأ » . فقضى

بتأميم المراعى والغابات وما في باطن الأرض من ماء . ويمكن أن يقاس على هذه المذكورات كل ما هو ضرورى للحياة بحيث لا يستغنى عنه أحد . وما كان الناس كلهم فيه شركاء على السواء فلا بد للدولة أن تتدخل فيه حتى تضمن تنظيمه وتوزيعه حسب المصلحة العامة . وذلك هو التأميم بعينه .

وهل تعلم أن الشارع قد أثار إشارة واضحة الى مشروعية تحديد ملكية الأرض الزراعية ؟ وأن علماء العرب المسلمين قد سبقونا الى القول بذلك ضمينا منذ أكثر من ألف سنة . ومنهم ابن حزم الظاهري وطاووس الفقيه العالم التابعى المشهور ذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم صح عنه أنه قال (من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه) فهذا الحديث الصحيح يقتضى بمدلوله منع الانسان أن يمتلك من الأرض أكثر مما يمكن أن يستغله بنفسه أو بواسطة أجراءه لانه منع المزارعة بنحو الثالث أو الربع . ومنع كراء الأرض بالذهب والفضة . ومهما اختلف الفقهاء في تفسير هذا الحديث وافادة نهيه للتحريم أو للتنزيه فإن الذى يهمنى هو أنه نهى بصراحة عن التوسع في امتلاك الاراضى واستغلال العمال .

هذا وقد ورد في حديث آخر ما معناه : « ان من حاز أرضا وأهمل استغلالها أكثر من ثلاث سنين فللحاكم أن ينتزعها منه » . تلك هى القوانين الاسلامية السامية . وذلك هو ما كان عليه المسلمون الاولون يوم كان الاسلام غضا طريا يفيض بالحياة فينبعث بروحه ونورانيته وبخطوطه العريضة الكبرى التى سطرها .

وإذا دافعنا عن اشتراكيتنا وآمنا بها مجاهدين في تطبيقها فلأنها منبثقة من كيانه الروحى ومن صميم قوميته . لا لاننا متأثرون بالمذاهب الاوروبية الحديثة بل هى التى تأثرت في الواقع بالروح الشرقية التى نفخها الرسول العربى الاعظم . تأثرت بها عن طريق مباشر أو طريق غير مباشر .

ومن تصفح ما أصدره عمر بن الخطاب من القوانين الاقتصادية والاجتماعية رأى الى أى حد كانت الاشتراكية تطبق في المهود الاولى لهذه الامة . على أن العرب حينئذ كانوا في نظرنا أميل الى الاشتراكية بطبيعتهم بسبب حداثة عهدهم بالتمدن وبسبب اعتدال طبعهم وعدم طفيان التهم المادى عليهم .

الا أن عمر بن الخطاب وأضرابه كانوا يقاومون بؤادر هذا الطفيان والجنوح الى الافراط في الجانب المادى بسبب التطورات المفاجئة لهم . على أن الفرق الذى كان بين غنيهم وفقيرهم اذ ذلك لا يعد شيئا بالنسبة الى الفرق الذى أصبح بين الفنى والفقر فى عصرنا هذا . لذلك أصبحنا نشاهد العالم الغربى تسيخ أقدامه شيئا فشيئا في حماة المناورات والتناقضات والاضرابات ويتعثر في أنياله فلا يكاد ينهض من كبوة حتى يعثر من جديد وأصبحت المعارك الطاحنة بين جميع الطبقات بين طبقات العمال وأصحاب رؤوس الأموال وبين أصحاب رؤوس الأموال بعضهم مع بعض . وقد أدى ذلك الى انحدار شعوبهم خلقيا ومعنويا وهكذا (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله) . أما اشتراكيتنا التى نؤمن بها فهى تمتاز عن النظام الشيوعى بعنصرين اثنين :

أولا — الاعتراف بحق الفرد في التملك شريطة المراقبة والتوجيه .
ثانيا — الاعتماد على القيم الروحية والايمان بوجود الله المستلزم لتحرير الانسان من عبادة الانسان .

قلنا أن اشتراكيتنا التى نؤمن بها وندافع عنها تمتاز بعنصرين أساسيين :

العنصر الاول — الاعتراف بحق الفرد في التملك والاقتناء . وهذا العنصر يكفى أن يكون وحده فارقا كبيرا بيننا وبين الشيوعيين . فالاشتراكية الاسلامية تبيح للفرد أن يمتلك ما يشاء . لا فرق في

ذلك بين مواد الانتاج ومواد الاستهلاك ما لم يؤد امتلاكه الى اختلال التوازن الاجتماعى بان يتسع الفرق بينه وبين مواطنين مثله اتساعا فاحشا ومضرا . والاشتراكية الاسلامية لا تعمل على هدم ما ركز في البشر من التفاضل والاستعدادات في المواهب والقوى لكنها ترجه هذا التفاضل وهذه الاستعدادات توجيهها سليما . فهى تعترف بانه يجب أن يكون هناك غنى وفقير وفاضل ومفضل .

وهنا مفترق الطرق الثلاث :

فالنظام الرأسمالى يحارب الفقر لا الفنى .

والنظام الماركسى يحارب الفقر والفنى معا .

واشتراكيتنا تحارب الفقر المدقع والفنى الفاحش .

وهنا نلاحظ أن محاربة الفقر وحده لاجال النجاح فيها الا بالاجاح فى محاربة الفنى . فان الفقر والفنى شئ نسبى فهما لا يستقران على قاعدة ثابتة . لهذا نرى النظام الاقتصادى للغرب لا يكاد يستقر له قرار . فهو لا يكاد يقترب من ترضية العمال والطبقة الوسطى حتى يبتكر أرباب رؤوس الاموال والطبقات الغنية وسائل جديدة ترفعهم ماليا فتزيد ثرواتهم . فاذا بالفرق الذى كان بينهم وبين الطبقات الفقيرة قبل الترضية هو نفس الفرق الذى بينهم بعدها .

فلا يزال الصراع والتنافس بين الطبقات دائمين على اشد ما يكون . فكلما اقتربت الطبقة الدنيا ابتعدت عنها الطبقة العليا الى غير نهاية . وهنا تتبين نقطة الضعف الكامنة فى نظام الاقتصاد الحر والتي تؤدى به الى الانهيار تدريجيا بطريقة حتمية ففى ذلك النظام يتحتم على المستهلكين أن يضغطوا على الحكومة لتساعدهم

على أن يرتفع مستواهم المعاشى فتضطر الحكومة حينئذ تلقائيا الى أن تضغط على المنتجين أن يساعدوها على أن ترفع من مستوى معيشة المستهلكين فيضبط المنتجون بدورهم وبمقضى حريتهم التامة فى الانتاج على المستهلكين ليرتفع مستوى انتاجهم فيقع الدور والتسلسل اللانهائى فيئول الامر بطبيعته الى الفرضى الاقتصادية والسياسة معا وهنا يقع الانحراف الخلقى ويستباح الغش والتزوير والتجارة بالمثل العليا للأمة . وهنا تنحصر الغليات والمثل كلها فى الاستباق لاكتناز الثروات واكتسابها بكل وسيلة ممكنة مهما كان نوعها وشكلها . ولعل هذا هو بعض السر فى انحدار الشعوب الاوروبية فى اخلاقها وعاداتها .

الا ترى الى أن الصحافة والمسرح ودور السينما وغير ذلك من الخدمات الشعبية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية الا ترى أن كل ذلك قد أصبح تجاريا محضا وأنه لا يراعى فى ذلك الا مقدار ما يجلبه من الثروة للفرد أو الشركة التى تدير ذلك المشروع . ذلك هو الضلال البعيد واى مستقبل ينتظر أمة هذا شأنها وطريق حياتها ؟ ألا تبا للمادة والماديين . وصدق رسول الله اذ يقول :

((تعس عبد الدينار والدرهم)) .

ونلاحظ مرة أخرى أن المذهب الذى يحارب الفنى والفقر معا انما يحارب الفطرة ويصادم الطبيعة فلا يتج حربه هذا الا المذبذبة والحيرة والانحراف الجارف . فان محاولة جعل افراد الانسان جميعا فى درجة واحدة من مستوى المعيشة رغم كون ذلك مستحيلا

من الناحية التطبيقية تقييد وتعطيل لنشاط أقوى طاقة من طاقات الإنسان الخلاقة .

أما مذهبنا فأنما يحارب الشطط من كلا الجانبين ويحاول تحديد وتقريب الفروق بين الطبقات ، فهو لا يعمل كما سبق أن قلناه على الفائها ومحوها ولا على اطلاق العنان لها وأنكاء نار التنافس بينها . (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

لهذا شرع الله الارث والحج والزكاة وغير ذلك من الحقوق المالية وفلسفة الاسلام الاقتصادية جزء من فلسفته الاخلاقية ومكملة لها .

انظر الى ما كتبه مؤسس الحضارة الاسلامية عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله ابي موسى الاشعري ما معناه . بلغنى أنك قد اتخذت لنفسك حياة خاصة في مطعمك وملبسك ومركبك/ياك يا عبد الله ان تكون كالبهيمة تبحث عن السمن وانما حثفها في السمن .

العنصر الثانى الذى يميز اشتراكتنا الاسلامية عن النظام الشيوعى على الخصوص عنصر جذرى وفلسفى واخلاقى يؤثر في حياة الانسان كلها في الميدان الاقتصادى وغيره من الميادين .

فالانسان في نظر الاسلام مختلف عنه في نظر الشيوعية الملحدة . فهو في نظر الاسلام مخلوق شريف مستقل بنفسه معهود اليه تسيير ما احتوت عليه الارض والسموات ومسخر له جميع ما فيها .

وقاعدة حياته هذه الكلمات . ان لنفسك عليك حقا وان لربك عليك حقا وان لاهلك عليك حقا . وهو في نظر الاسلام مسؤول مباشرة وقبل كل شىء أمام الله الذى خلقه وشرفه والذى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء . أما في نظر الشيوعية

المادية فالانسان عبارة عن مجموعة من مواد كميائية تشكلت بواسطة التفاعل الطبيعى اللانهائى في صورة انسان . فهو عندهم مجرد آلة ميكانيكية لا يختلف عن الآلات التى يبتكرها ويستخدمها الا من حيث الدقة والتعقيد . وعلى هذا فهو مسؤول فقط أمام انسان أو مجموعة من الناس مثله وبعبارة أدق أمام قانون يضعه وينفذه انسان أو مجموعة من الناس مثله . وهنا يتسع الفرق بيننا وبينهم .

فالحصانة الخلقية للانسان المسلم ذاتية فهي تنبعث من داخل ضميره ومن شعوره واحساسه بالرقابة العليا التى تهيم عليه . فهو يؤمن بان مراقبه هو الله العالم القدير المسيطر عليه .

أما الانسان المنكر للالهية المعتقد بانه مجرد آلة مادية لا رقابة عليه فحصانته الخلقية (ان صح ان تكون له حصانة) ستكون مقسمة ومستمدة من الخارج . تنقطع لأول مناسبة ولادنى فرصة . تنقطع بمجرد ما يحس باستقلاله عن سلطة القانون فهو لا يشعر ولا يؤمن الا برقابة انسان عاجز ضعيف جاهل مثله .

فالنظام الاقتصادى الذى يرتكز على هذه الفلسفة يترتب عليه حتما الخيانة والتدليس والالواء في المسارب المظلمة ويترتب عليه المختلة والنفاق والتصارع العنيف الدائم بين الخلق والقانون . ومن ثم ترى التعقيد المزرى والالتواء اللانهائى ملازمين لميدان التشريع والقضاء المرتكزين على الفلسفة المادية والقوانين الوضعية .

بقى لنا أن نقول كلمة في افراغ الماركسيين على النظريات الماركسية الطابع العلمى والصبغة النهائية .

والحق أن تلك الفلسفة لا تزال الى الآن في محك السبر والاختبار ولا تزال مجرد نظريات قابلة للنقض وقابلة للتعديل ولم تبلغ بعد تلك النظريات الدرجة العلمية بالمعنى الصحيح بل ان ذلك القليل

من السنوات التي طبقت فيها تلك النظريات كان كافيا لنقض الكثير منها أو تغييره . فقد وجد النظام الشيوعي المطبق في أول الأمر نفسه غير صالح للبقاء فتغير وتطور مرتين أو ثلاثا في مدة لا تبلغ نصف قرن . ثم دب الخلاف بين أهل ذلك النظام وبين الذين يدعون أنهم يطبقون اشتراكية علمية على حين أن ما كان علميا لا يمكن أن يختلف فيه اثنان . فليت شعري ما الاشتراكية العلمية في عصرنا هذا ؟ أهى اشتراكية الصين أم هى اشتراكية يوغوسلافية أم هى اشتراكية السوفييات ؟

إن نظريات كارل ماركس وانجليز وغيرهم من القادة الأولين لم تزد على أنها نظريات متأثرة بالأمزجة النفسية لأولئك القادة وظروفهم الزمانية والمكانية التي عاشوها والأوضاع الاجتماعية للعالم حينئذ . والعلم ليس من السهل أن يبت في النظم الاقتصادية للعالم وأن يقول فيها كلمته النهائية لأن العالم الاقتصادى والاجتماعى في تطور مستمر وفي تفاعل معقد لا نهائيا . فمن المستحيل عندنا أن يحكم القرن التاسع عشر على القرن العشرين ويحدد له نظامه النهائى ، لكن هؤلاء الدعاة الماركسيين يحاولون التأثير في الشعوب والأفراد بافراغ كلمة العلم على تلك النظريات ، فهم يستغلون في دعوتهم كلمة العلم كما يستغل الدعاة في المجتمعات الدينية كلمة الدين لامتلاك النفوس واجتذابها .



الفصل الخامس

المرأة والاسلام

إن من أهم القواعد التي يركز عليها بنيان حضارتنا وضمير المرأة والمركز الذي تتبوأه من المجتمع . فنجاحنا في تثبيت وتشديد مانهفد اليه من مثل عليا يتوقف الى حد كبير على حية المرأة ونفوذها النفسى والاجتماعى وعلى ما تقوم به من ادوار وعلى نوع العلاقة التي تكون بينها وبين الرجل .

إن المرأة أحد العصيين من أعصاب الحس والحركة . انها أحد السلكين من أسلاك الكهرباء السالبة والموجبة . انها إحدى القدمين اللذين بهما تنهض الأمة وبهما تسعى لبلوغ أهدافها . فميدان المرأة من أوسع الميادين وأثمورها . والخائض فيه كخاض في بحر من الظلام . انه ميدان تزل فيه الاقدام وتطيش فيه الاحلام وتكثر فيه الاوهام . فهل نستطيع نحن أن نخوضه ونخرج منه بسلام . . . ؟

معذرة لك أيتها المرأة وعفوا . فاقصدى في العذل . ما أظن أننى قسوت عليك . انك لم تزل الى ولن تزالى نقطة الحيرة والاستفهام فقيما شبهوك بالشمس وبالقمر ننتفع بأثارهما ولا نستطيع أن نتحكم في أجزامهما .

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فان تستطيع اليها المصعودا ولن تستطيع اليك النزولا
فما أضعفك وما أقواك ما الطفك وما أقساك ما أبينك وما أخفك .

لله ما أعجب هذا الإنسان . لقد استطاع أن يفهم كل ما يحيط به من أرض وسماء وهواء وماء . الا نفسه . الا المرأة التى هى جزء منه وبعضه . وهل تظن أن المعركة بين الرجل والمرأة ستنتهى اللهم الا اذا انتهت المعركة التى بينك وبين نفسك . بينك وبين ضميرك .

ياابنت حواء التى أخرجتنا من الجنة كما يقولون (رويدك) تلتفى اياك أن تخرجينا مرة أخرى من السعادة التى ننشدها ونجتهد فى بلوغها . ولئن أخرجتنا منها فانك ستخرجين معنا لاننا منك وأنت منا . فهلما لتعاون على البر معا ونسعى جنبا الى جنب ونضع اليد فى اليد حتى نبلغ أهدافنا العليا التى هى سعادة الجميع (انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

فهذا العمل المتواصل من كلا الجنسين لله الذى لا يضيعه . وهذا الاحترام المتبادل الناتج عن كون بعضنا من بعض . وهذه المودة والرحمة اللتين أفرغهما الله على الجنسين . هذه العناصر كلها هى التى يجب أن تسود علاقة كل منا بالآخر وتسود حضارتنا المقبلة اذا أردنا لها الثبات والخلود . بل يجب أن توضع القوانين الصارمة الدقيقة لحماية هذه العناصر وترسيخها . والا فستكون حضارتنا معرضة للانحلال والانهيار فى كل حين .

جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا من الصحابة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم متى الساعة ؟ فأعرض عنه الرسول فى المرة الأولى وفى المرة الثانية ثم أجابه فى المرة الثالثة : اذا ضيعت الأمة فانتظر الساعة . قيل وما اضعها يا رسول الله ؟ قال اذا أسندت الامور الى غير أهلها فانتظر الساعة .

وطبيعى أن لكل أمة ساعتها . وساعتها هى أوان انحلالها وعجزها عن القيام بالدور التمدنى الذى يجب أن تقوم به .

وطبيعى أن للمرأة دورا حضاريا خاصا لا يمكن أن يقوم به الرجل كما أن للرجل دورا حضاريا خاصا لا يمكن أن تقوم به المرأة . هذا بقطع النظر عن كون المرأة مساوية للرجل فى الحقوق والواجبات أو غير مساوية له . فمن البديهي أن لكل فرد دورا خاصا لا يمكن أن يقوم به فرد آخر .

فدور القوى البنية الفارع القامة غير دور التحيل الجسم القصير القامة . كما أن الدور الذى يسند الى الكهل غير الدور الذى يسند الى الفتى . وقل مثل ذلك فى الفنان والسياسى والعلمى وغيرهم من طبقات البشر وأنواعهم . وقل مثل ذلك فى كل من الجنسين الرجل والمرأة . ومتى انخرمت القاعدة وتدخل كل فى دور الآخر وقع الخل ومرتجى العهود . ولا يختلف اثنان فى القاعدة التى ذكرنا ولكن الاختلاف البعيد والصراع العنيف فى النقطة التى ينتهى فيها دور كل بالنسبة الى الآخر . هنا تفرق البشر على طرق متباعدة لامطمع فى جمعهم على طريقة واحدة . فهذا السؤال : أين ينتهى دور المرأة بالنسبة للرجل وأين ينتهى دور الرجل بالنسبة الى المرأة ؟ .

لم يجد ولن يجد العالم الاجابة عنه اجابة صحيحة علمية مسلم بها . وهنا يجب أن نختر ونتحرى فى فهم واسناد كل من الرجل والمرأة دوره الذى يستحقه والذى أعد له . يجب أن نتحرى فى ذلك اقوم الطرق التى تؤدى بنا الى الهدف المنشود . وخطا قليل فى هذه النقطة يؤدى بنا الى الهاوية وينحدر بنا الى الدرك الاسفل من الشقاء .

فان هذه النقطة هى من الاهمية بمكان بل هى فى نظرنا أهم من جميع النقط التى تركز عليها حياتنا الحضارية لانها نقطة تكوينية

تتعلق بتكوين الاجيال الصاعدة من الجنسين وتهيتها ليكونا صالحين لبناء مدينة صحيحة سليمة من عوامل الانحلال طويلة العمر لم يسبق لها مثيل من قبل .

ومن أفضح الأخطاء أن نقلد غيرنا في هذا الميدان ونضع فيه ثقة عمياء فنسلك نفس الطريق الذى سلكوه اعتقادا منا أنهم قد نجحوا كلا أنهم لم يزلوا بعد في الطريق بل أنهم في نظرنا من هذا الميدان في منزلق سحيق ما له من قرار . أنهم في انزلاقهم قد غمروهم نشوة الانزلاق ولذته حتى أنهم قد فقدوا توازنهم وانهم من الآن قد انفلت أمرهم من بين أيديهم وما لهم من محيص .

وقضية وزير الدفاع الانكليزي وصاحبته في هذه الأيام حجة لنا على ما ذكرناه فانها قد هزت الشعب البريطانى كله وأحدثت فيه نوبة قلبية مريضة وما هذه القضية الا واحدة من عشرات الألوف من الفضائح الأوروبية التى تقع من هذا النوع كل يوم تقريبا .

ولا نظن أن غرضنا من كل ما تقدم اقامة سور متين من الاسمنت المسلح بين الرجل والمرأة . وان كل دور تقوم به المرأة يحرم على الرجل القيام به وكل دور يقوم به الرجل يحرم على المرأة القيام به . كلا فأننا نعتقد أن معظم ما يمكن أن يقوم به واحد منهما يمكن أن يقوم به الآخر مثله أو أحسن منه بل نعتقد أن الله تعالى خلق المرأة أقدر من الرجل على التكيف والتحمل على أسباب الحياة المختلفة . انما نود أن نقيم ببيان حضارتنا على أسس جديدة من الفضيلة ومن عوامل السعادة التى أهملت ملاحظتها الحضارات المتقدمة عنا وأن نمعن النظر فيما ورثناه من آباءنا من قديم العادات والتقاليد فننتقى منها ما كان صالحا لحاضرنا ومستقبلنا وملائما لنوع الحضارة التى نرسى قواعدها ونرفض ما كان قد علق بنا من الرواسب التى قيدتنا بها الاوهام والاساطير التى ما أنزل الله بها من سلطان .

والحصانة الوحيدة والسور الوحيد الذى نريد اقامته بين الجنسين هو التربية الدينية والخلقية والاجتماعية .

فالتربية السليمة والقوانين الوقائية الصارمة هى عندنا أمثمن من الاسمنت المسلح ومن كل قوة من قوى التحصين . ولقد أسعدنا الحظ فادركنا اليوم الذى استقلت فيه البلاد العربية كلها سياسيا واداريا . ولكن هل سيسعدنا الحظ مرة أخرى فنذكرك اليوم الذى تستقل فيه ثقافيا واقتصاديا . وما ذلك على الله بعزيز . أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا .

لقد رأينا قادة العرب الاحرار ينتهجون في السياسة نهج الحياء الايجابى ويعلنون ذلك في حملات متوالية . فهل سينتهجون نفس الطريق في ميدان الثقافة والاقتصاد ؟ نرجو أن يكون ذلك قريبا وبصفة تطبيقية .

ان الميادين الثلاثة : السياسة والثقافة والاقتصاد لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض ولا غنى لواحد منها بدون الباقي . فهى في نظرنا كالأفلام الثلاثة عند المسيحيين : الأب والابن وروح القدس . كلها ترمز الى شيء واحد، هذا وحضارتنا التى نخطها لا يمكن أن يكون لها طابع خاص وممتاز ولا نستطيع أن نفتخر باننا قد عملنا شيئا في الميدان الحضارى وادينا رسالتنا كاملة في الوجود الا بهمراة هذه الأركان الثلاثة كلها : السياسة — والثقافة — والاقتصاد — وأعلنها حريا شعواء على كل مخلفات المجهود الاستعمارية الماضية في الميادين الثلاثة .

ومن أهم فروع الثقافة وأمسها بنا ويتطور مستقبلنا الحضارى تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة . واذ قد تقرر أن معظم ما يقوم به أحد الجنسين يستطيع أن يقوم به الآخر مثله أو أحسن منه فوجوب اختصاص كل منهما ببعض أعباء الحياة انما يكون بالنظر الى النتائج والعواقب المترتبة على مخالفة الطبيعة والتى تؤدى الى

الانحلال الاجتماعى لا بالنظر الى الاستطاعة وعدمها . فان المرأة تستطيع مثلا أن تقود طائرة عسكرية وتلقى القنابل وتصيب الاهداف والرجل يستطيع مثلا أن يربى طفلا منذ الساعة الاولى من ميلاده الى أن يبلغ أشده .

وإذا قلنا أن المرأة يجب أن لا تكلف بجميع أعباء الحياة وأن لا تشارك الرجل في جميع الواجبات فليس معنى ذلك أنها لا تستطيع أن تؤدي ما يؤديه الرجل ولكن معناه المحافظة على كيان الأمة وسلامتها . فان أدنى ما ينتج من مشاركة المرأة في جميع الواجبات وجعل الجنسين في درجة واحدة من تحمل أعباء الحياة تفكك الأسرة والانحراف التربوى وضعف عاطفة الأبوة والأمومة وتضائل العلاقة الزوجية . واذ ذاك يختل توازن المجتمع وتتحل عراه . وإذا قلنا ذلك فان البلاد الضاربة في الحضارة المادية تقيم لنا أكبر دليل حسى وتجريبي لا يمكن نكرانه . نعم ان من حق المرأة أن تعيش كما يعيش الرجل وأن تتحرر من القيود والأغلال التي كانت عليها ومن الرق الذي كان يحط من كرامتها . ولكن يجب أن يكون ذلك كله في اطار المحافظة على التوازن الاجتماعى وسلامة الأمة من عوامل الانحيار . فاذا كانت القوانين التي تحارب الفساد والقوضى الاجتماعية كعصابات الاجرام والادمان على الخمر والحشائش المخدرة الى غير ذلك لا تعد حدا من حرية الافراد وخفقتها لها فكيف يعد تخصيص المرأة ببعض أعباء الحياة دون بعض حدا من حرية المرأة وتقييدا لها ؟...

على أن الذين يدفعون المرأة الى أن تشارك الرجل في جميع الواجبات انما يدفعونها عن قصد أو عن غير قصد الى أن تكون أثقل من الرجل عبئا وإلى ابقاء الرجل ظافرا بنصيب الأسد من هذه الحياة . فان الرجل لا يمكن أن يشاركها في أعباء الحمل والولادة والتربية وغير ذلك مما يعد الرجل عمله تنازلا منه وحطا من كرامته

مثل تدبير المنزل وتنسيقه . نحن لا نحارب مشاركة المرأة في الحياة العامة انما نحارب الاندفاع والتقليد والافراط المؤدى الى التدهور الاخلاقى لاننا نفهم أن هناك علاقة متينة بين مشاركة المرأة في الحياة العامة وبين التطور الفكرى والتمدن البشرى . ولكن لا نفهم أن هناك علاقة ما بين الانسلاخ من الفضيلة وعبادة الغريزة الجنسية السفلى وبين التطور والتمدن .

وإذا كان للمرأة الحق في أن تتعلم ما تريد وتحترف حرفة تستغنى بها عن سواها وتسير شؤونها بنفسها وتساهم في التوجيه السياسى والاقتصادى والاجتماعى للأمة فإى تحرر أوسع من هذا ؟ . الا أن يصبح التحرر معناه التفسخ والميوعة والانتحار من المثل العليا والانجراف الى أسفل سافلين .

وكل ما نطالب به القادة هو حماية ذلك التحرر الشرعى من أن يتعدى طوره فيصبح غير شرعى . نطالبهم بحمايته من تلك الآفات الاجتماعية المحطمة .

ففى ميدان التعليم يجب أولا — مراعاة قاعدة عدم الاختلاط خصوصا في سن المراهقة فما فوق . ثانيا — اسناد تعليم النساء للنساء وتعليم الرجال للرجال ما أمكن . ثالثا — مراعاة أدب الحشمة والشرف والوقار بكل معنى الكلمة لا سيما في اللباس . رابعا — اشرب مراحل التعليم كلها بروح العقيدة الدينية الصحيحة بحيث يكون النشء من الذين اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون .

وهنا نعترض على الذين يدعون أن مثل ما قررناه من محاولة الحيولة بين المراهقين وبين الانطلاق الجنسي يحدث عقدا نفسية مضنية ويحدث ايقاعا لأولئك النشء في شبكة التناقضات . نعترض على هؤلاء بان ما يقولونه غير مسلم به اطلاقا . وعلى فرض صحة ادعائهم فان هذا الخطر لا يعد شيئا ضئيلا بالنسبة الى الخطر

المراة التى تتقن دورها الذى أعدت له من العناية ببيتها وزوجها وأطفالها أنفع للمجتمع من المراة التى تعمل فى مكتب ما . وقد أهملت دورها الاساسى . الذى لا يصلح الا لها ولا تصلح الا له . الا اذا استطاعت أن تقوم بالدورين معا وبدون اهمال .

وفى ميدان السياسة نقول ما قلناه فى ميدان الاقتصاد . فمن حق المراة أن تنتخب وينتخب عليها ومن حقها أن تشارك فى جميع الاطارات شريطة أن يكون هناك داع معقول لمشاركتها . أما أن يكون ذلك مجرد أن يقال ان الامة قد تقدمت وتطورت وبلغت حدا عاليا من التوضوح السياسى والفكرى وبعبارة أخرى لمجرد ارضاء الضمير الاوروبى والتزلف له فهذا من السخف الفاحش .

ذلك هو ما نراه فى ميدان تطوير المراة وتحريرها وذلك ما نود من صميم قلوبنا أن تكون عليه مدينتنا الاسلامية العربية التقدمية . لحررة المتبعة من داخل كياناتها القومى . بقى علينا أن نتعرض لبعض القضايا الهامة المتعلقة بالمراة والتى لا تزال مثار النزاع العنيف بين من نصبوا أنفسهم محامين للدفاع عن الدين وبين من نصبوا أنفسهم محامين للدفاع عن المدنية الغربية وهى :

— الحجاب — وتعدد الزوجات — وتحديد النسل — والطلاق —
حقا لقد كان تطور المراة وأثره فى المجتمع الاسلامى من أبرز وأهم القضايا التى تشغل بال المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها وتستهلك جزءا كبيرا من تفكيرهم ذلك لان المراة فى نظرنا قد كادت أن تكون هى كل شئ فى هذه الحياة . فهى أقدر من الرجل على تشكيل الأوضاع الاجتماعية وعايها يتوقف مستقبل حياة الشعوب الاسلامية خصوصا من الوجهة الاجتماعية والخلقية .

فقضية الحجاب والسفور لها علاقة متينة بتكييف مستقبل الحضارة الاسلامية لذلك انقسم فيها المسلمون كغيرها من القضايا الهامة الى مفرط ومفرط ومعتدل . فمنهم الذين بالغوا فى تقييد

الذى يؤدى اليه التحرر الجنسى المطلق . واذ ذاك تكون ادارة التعليم قد عملت على تربية جديفة عملية حاملة لبذور التمكين والانتصار وتكون أيضا قد أنقذت كثيرا من الفتيان والفتيات من الارتباك والعقد النفسية التى تحطمهم وتشقيهم مدى الحياة بسبب الاختلاط واللامبالاة . وفى الميدان الاجتماعى يجب محاربة كل ما يؤدى الى تهيج الفريضة واثارتها من المراقص والملاهى ونحوهما . ويجب تشديد المراقبة الادبية فى الانهج والطرق وتعطيل الشواطىء والشطوط من لحوم البحر على حد قول المرحوم مصطفى صادق الرافعى ومن الأسماك البشرية المتلاطمة المنزئة لأن تنطبق عليها الشباك الحكمة .

ولقد حملت الينا المدنية الغربية من الثمار ما فيه اللذة والغذاء كما حملت الينا من حسكها وأشواكها ما يعجل بالعطب والردى . والا فما العلاقة بين بروز الفتيات فى الشوارع والقاعات شبيهه عاريات وبين التطور الفكرى والتقدم البشرى . الا أن يكون اشباع الفرائز السفلى والعودة الى الاطوار البشرية الاولى تقديما وتطورا .

ليت شعرى هل نستطيع يوما ما أن نبرز للعالم حضارة خاصة بنا تحتوى على كثير من الثمار وعلى اقل قليل من الاشواك ؟ أما نحن فنعتقد أن ذلك ممكن بل قريب جدا بالنسبة الى ما ورثناه من تقاليدنا الاسلامية الصحيحة . اللهم الا اذا لم نستطع التخلص من تقليد الأوضاع الغربية وتقديسها . ثم ان الواجب يقضى علينا أن نحارب البغاء بنوعيه : السرى والعلنى . وأن نشجع الناشئة على الزواج ونحملهم عليه بكل وسيلة ممكنة . ثم اننا نلاحظ مع ما تقدم كله انه انما يتحتم علينا تخفيف الشر والفساد واضعافهما لاستئصالهما وقطع جرائمهما من الامة .

وفى الميدان الاقتصادى يجب أن لا تغلق ابواب الاعمال الخارجية فى وجه المراة غير أن الاولوية تعطى للرجل الا عند الحاجة . فان

المرأة فاحاطوها بأسوار سميكة وفصلوها عن الحياة العامة وحالوا بينها وبين التطور الفكرى والتقدم البشرى الطبيعى حرصا منهم على أخماد الفتنة وعلى سد كل فرصة أمامها وتطهيرا للمجتمع الإسلامى من كل ما يثير غريزة الجنس ومن كل ذريعة تؤدى الى نشر الرذيلة وتمكينها .

فهؤلاء قد غلوا في دينهم وتنكروا لمثل قوله تعالى (ما جعل عليكم في الدين من حرج) - وقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . كما تنكروا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق فان المنيب لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى فاغدوا وروحوا وشيناً من الدلجة والقصد القصد تبلفوا - الحديث -

بل أن هؤلاء قد أساءوا الى الاسلام من حيث أرادوا الدفاع عنه . فان تقييد المرأة بقيود الجهل والتخلف وغلق أبواب التطور في وجهها تقييد للمجتمع الإسلامى كله . فان ذلك يؤدى حتما الى الانحراف التربوى والى انحراف خطر في العلاقات الزوجية وعلاقات الوالد بالولد الى غير ذلك من المضاعفات الخطيرة التى تنشأ عن هذا الانحراف التوجيهى . فكم كان تاخر المرأة في ما مضى سببا في تاخر الأمة الإسلامية في عقيدتها وفي أخلاقها وفي سلوكها .

ومن المسلمين من استحوذ عليهم الشعور بتلك الاخطار المذكورة الى حد ان دفعهم هذا الشعور الحاد الى النقمة والحقد على كل من يدعو الى تحصين المرأة والفيرة لها فبالفوا في اطلاق المعان لها وفي دفعها الى الشارع بعاطفة هوجاء وبدافع الحقد والنقمة على الماضى والتقليد الاعمى للأوضاع الأوروبية دون أن يتنبهوا قليلا أو كثيرا ودون أن يرجعوا الى فطرتهم العديقة فيسترشدوها لتخط لهم اقوم الطرق وأهدأها . غير أن هؤلاء حسبوا وقد أخطأوا

في ظنهم أن فتح أبواب الحرية الجنسية على مصارعها وتمكين الفريضة من الاعلان عن نفسها بكل جلاء حسبوا أن ذلك هو الذى سيخفف ويلطف من حرارة الفريضة ويؤدى الى تضيق فرص الرذيلة والاعتدال في السلوك . لكن ما أفحش خطاهم وما أضلهم عن الطريق المستقيم . ولقد كذبهم الحس وأبرز خطاهم الواقع والتاريخ . وقد سبق أن قررنا أن الطاقة البشرية كالتاقة النارية فيها الاضاءة والاشراق وفيها الحرارة والاحراق . ففريضة الجنس كلما أثرت وكلما قدم لها الوقود ازداد استعارها والهبتها لما حولها . فاذا هى طاقة محطمة بدلا من أن تكون طاقة معمرة . فلا بد اذن من توجيهها وتنظيمها ومراقبتها واخضاعها للقوانين الرادعة حتى تؤتى ثمرتها كاملة .

ان كثيرا من النظريات العلمية والاجتماعية التى كانت تسود العالم في القرن التاسع عشر قد أخذ ضعفها وسخفها وعدم صلاحيتها للبقاء أخذ ذلك يبرز للعيان . ومن ذلك : النظرية التى تقول أن الحرية الجنسية المطلقة هى السبيل الوحيد لتخفيف وتلطيف الشرور والويلات التى تنتج عن غريزة الجنس .

فقد تبين للعالم أن كثيرا من الجرائم الجنسية والأمراض النفسية والعصبية والارتقاء العقلى وغير ذلك من العلل الخطيرة التى تشكو منها المدنية الأوروبية الأخذة في الأفول . تبين أن ذلك مرده الأكبر الى اثاره التهم الجنسية والافراط في ارضاء الميول والشهوات البهيمية . فان المرأة التى تستثار وتستثار حتى تصبح عارضة بدنفا في الانهيج والطرق كما تعرض البضائع في المواجهات لا يمكن أن يرجى منها نفع للمجتمع ولا يمكن أن تكون سببا للتطور البشرى نحو الكمال . فالذى يتعود النظر الى الاسفل يشق عليه أن ينظر الى الأعلى . ولله در العرب المسلمين . فقد كانوا أبعد غورا واعمق

وسر الاعجاز ودقة التعبير كله كامل في كلمة — ما — الجبهة .
ففى التعبير بها اشارة الى ان الذى يباح للمرأة من زينتها وكلها
زينة بالنسبة الى الرجل هو ما تقتضيه ضرورة الحياة . فهو لم يرد
ان يحصر الامر فيقول الا هذا العضو او ذاك لان الضرورة تختلف
باختلاف العصور والامصار كما تختلف بالنسبة الى الافراد
والاوضاع الاجتماعية . غير ان الشارع وهو الله تعالى لم يرد ان
يترك الامور فوضى ولم يرد ان يترك لكل فرد ان يفهم من قوله
(الا ما ظهر منها) ما تشاء له أهراؤه وميرله الخاصة . فقد وضع
للمسلمين الخطوط العامة التى يجب ان ينتهجوها فى هذا المقام
التشاكك الحساس فاحاط هذه الآية بما يميز الصراط المستقيم من
الدروب المتوية وبما يميز الوسط الهادى من الطرفين المهلكين
فامر المؤمنين والمؤمنات بغض الابصار . وغض الابصار لا يكون
الا عن تلك الزينة الظاهرة . فلو كان الحجاب الاسود الكثيف
واجبا لما كان الأمر للمؤمنين بغض الأبصار من فائدة .

ولو كان الامر كما يدعى المتمردون عن الشريعة الفراء التى
هى قوام الحضارة الرفيعة من الاباحية المطلقة بالنسبة الى المرأة
وابدائها لزينتها لما قال تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)
فتبين ان الخطة المثلى التى خطتها الحضارة الاسلامية للمسلمين
هى ان المرأة لا تحرم من الحياة بان تغطى بدننها كله بحيث تتعذر
عنها الحركة والنشاط اللازمين لقضاء مآربها وشؤونها ولا تتكشف
وتتبرج بحيث تعرض زينتها التى لا حاجة لعرضها وابدائها . لهذا
فهم الصحابة رضى الله عنهم من قوله (الا ما ظهر منها) الوجه
والكفين كما ورد ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعطاء بل قد روى
في ذلك حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه أبو داود
بسنده مرسلا وهو ان الرسول قال لاسماء : يا أسماء اذا بلغت

فلسفة من أولئك الاوروبيين الماديين البهيميين . انظر الى قول
البصيرى رحمه الله :
والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تظمه ينظم
وقال

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ان الطعام يقوى شهوة النهم
فقد تبين لك من كل ما ذكرناه فى هذا البحث ان تطرف المحافظين
المغالين فى احاطة المرأة بالقيود التى لا تتفق وما تقتضيه طبيعة
الحياة البشرية ، ان تطرف أولئك كان من اكبر الاسباب لحدوث
تطرف آخر معاكس له تماما حتى برزت طائفة من أبناء المسلمين
ناقمة على الاسلام وعلى تقاليد الاسلام وقيمه العليا اعتقادا منهم
بان الروح الاسلامية الخاصة هى ما وجدوا عليه المسلمين من تقاليد
وعادات .

وعندنا ان التطرف دائما يؤدي الى التطرف وان العقوبة أبدا
للاعتدال . فهو الذى سيسود اذن فى النهاية حتما وسيصطدم
العالم باخطائه وتجاربه المختلفة المتباينة حتى يعود بطبعه الى
سواء السبيل .

(سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق)
(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون) .

والاعتدال عندنا هو ما جاءت به الشريعة العذبة السحاء كما
نزلت من السماء رقراقة صافية قبل ان تمسها الايدى الملوثة وقبل
ان ترمى فيها الانحرافية اقدارها . الاعتدال هنا فى هذا المقام هو
ما عبر عنه القرآن بقوله :

(ولا يبدن زينتهن الا ما ذكر منها وليضربن بخمرهن على
جيوبهن) الى آخر الآية .

المرأة المحيضة فلا يصلح أن يرى منها الا هذا فأشار الى وجهه وكفيه .

ومما يدل على ما قلناه حديث الفضل ابن عباس حين كان رديفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته فجاءت المرأة الخثعمية تسأل الرسول عن الحج ويجيبها . وكان الفضل ينظر اليها فيلوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الفضل الى الجانب الآخر ولم يرو أنه أمرها بالحجاب .

ويبدو أن صورة الحجاب التي استقرت عليها نساء المسلمين منذ العهود الاولى الى عصرنا هذا كان من قبيل الاحتياط لانفسهن . فان التزق الذي نشاهده في عصرنا من الانسان الذي يبلغ الطور الاول من الفتوة هو التزق الذي كان في عهد الصحابة وفي كل عهد من عهود البشرية . لذلك أمر الله نساء المؤمنين بان يدين عليهن من جلابيهن ليميزن من الائمة والنساء الغير المحصنات .

وتدبر السر في قوله (ونساء المؤمنين) هكذا بالاضافة ولم يقل والنساء المؤمنات . فان هذا التعبير والتعليل الذي علل به الامر بعد ذلك بقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) يدلان على أن الأمر ليس من التاكيد بحيث يفيد الحتمية ويؤيد ذلك ما فهمه الصحابة من آية سورة النور (ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها) فأجازوا إبداء الوجه والكفين .

ونحن لا نشك في أن الحجاب ادعى للاحصان . لا كما يدعى بعض الناس من أن أحب شيء الى الانسان ما منع عنه . لكن الشارع لا يراعى في التشريع جانبا واحدا بل يراعى في ذلك جميع الحيثيات . وحيث أن احتجاب المرأة بكل بدنها حتى وجهها وبديها يعد اجحافا بحق المرأة وحطا لها من درجة الانسان المقدر له أن يكون خليفة في الارض وتقييدا لها من امكانية اضطلاعها بأعبائها

ومسؤولياتها في الحياة أباح لها أن تبدى من زينتها ما ظهر منها الا أن تحتاط لنفسها وتبتعد عن أجواء الريبة وتعمل على ما يساعدها على احسان نفسها . كذلك أمرت آية الاحزاب (ذوات الازواج ان يحتطن لانفسهن عندما يكون جو الريبة محيطا بهن) فقد روى أن الآية نزلت في شأن النساء التي كن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبرزن ليلا أى يقضين حاجتهن في الخلاء خارج أحيائهن لخلو الدور يومئذ من الكنف فيؤذين من قبل التازقين من الفلمان فأمرن بادنء الجلابيب عليهن كما ذكرناه فلقنمية اذن قضية احتياط وغيره للازواج ومحافظة على كرامتهم وشرفهم .

وهل يرضى المسلم من امرأته أن تتراشق هى وابناء الشوارع بالاحاظ المسمومة وان يستوقفوها كما استوقفها المتنبي في قوله :

قفى تفرمى الاولى من اللظ مهجتى

بثانية والتلف الشيء غارمه

وهل يرضى منها ن تتلمل في جراحها ثم تراسل مفترسها بما قالته الشاعرة العربية من قبل :

الحاظنا تجرحكم في الحشا ولحظكم يجرحنا في الخدود
جرح جرح فاجعلوا ذا بدا فما الذى أوجب جرح الصدود
تلك هى نتيجة التحرر من القيود الشرعية والاختلاط المتصف باللامبالاة . فان النظرة كالكاس التي لادواء منها الا كاس مثلها أو احسن منها الى أن يقع المحذور .

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء

وبعد . فتحرير المرأة يجب أن يتلهم معضداتنا الجديدة أهمية الخالية من عناصر الترهل والفسيلة . وذلك لا يكرن الا بتطهير الجو تطهيرا كاملا من أبخرة الدعارة وبذور التآكل وجراثيم الانحلال . أما تحرير المرأة على النمط الاوروبى الحاضر فانه سيؤدى بنا الى ما

آلت إليه أوروبا من التضاؤل والانحسار الى مرحلة مجرد الدفاع عن النفس بعد أن كانت تهاجم العالم وتباغته وتديره بشخصيتها وروحها وسوف لا يقف بها الانحدار حيث هي بل عما قريب ستصبح عاجزة حتى عن مجرد ذلك الدفاع . ومن أهم أسباب تدهورها عندنا قضية تحرير المرأة تحريرا مفرطا جعلها تنحرف عن أداء مهمتها الاجتماعية فأبرزت أجيالا محطمة من الوجهة الروحية والمعنوية التي هي قوام الدفاع والحفاظة على المثل العليا .

افترضى لانفسنا هذا المآل ... ؟

وأبرز حجة تؤيد ما ذكرناه . الثورة الجزائرية نفسها . فلماذا كان ابن الجزائرية المتحجبة المتأخرة في نظر الخصم قاهرا ومذلا لابن الفرنسية المتقدمة البالغة الحد الأقصى من الحرية . أرايت لو تم لقاء بين أدبات أبطالنا من أمثال مصطفى بن برعيد وناقذد اعمر وشو والحواس والعربي بن مهيدي وغيرهم وبين أمهات وحش الفرنسيين الأكاسرة من أمثال صالان وبيجار ولاكوصت وسوستال وغيرهم من جميع الطبقات أرايت لو تم لقاء بين أمهات هؤلاء وهؤلاء فلمن يكون التيه والفخار على الأخرى يا ترى ؟ الا أن المرأة المحصنة التي تحسن معنى الأمومة وتستطيع أن تنجب من تعتر به الأمة هي أرفع امرأة قدرا وانفعها للمجتمع واغناها عملا في الميادين كلها .

لهذا نقول مرة أخرى يجب أن يحاط تحرير المرأة بتشريعات قضائية تكفل له الصلاحية وتحول بينه وبين الانزلاق الى الحماة كما يجب اصدار تشريعات قضائية في كل ما يتعلق بالمرأة في جميع الميادين كازواج والطلاق .

فقضية اباحة تعدد الزوجات وتحريمه من أهم القضايا التي تؤثر في تكيف أوضاعنا الاجتماعية تأثيرا جذريا وهي من أشد ما

يوسع شقة الخلاف بين المحافظين والتطوريين ويثير الضغينة بينهما . غير أن الفريقين لو تحاكما الى روح الشريعة النزيهة مما ران عليها من أصداء النظريات القذرة ونبذوا وراءهما التحجر والتقليد بجميع أشكاله لوجدوا أنفسهما في نقطة الالتقاء . فإن الدين الصحيح هو التمدن الصحيح بعينه . وكل ما ينسب الى الشرع مما لا يوافق مقتضيات التطور البشري الخالي من الالتواء والانحراف فانما ينسب اليه زورا وبهتانا . فقضية تعدد الزوجات قد قال فيها القرآن القول الفصل قال (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وقال (وان تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) . فانت ترى أنه تعالى قد أشار اشارة واضحة الى أن الأصل في الزواج يجب أن يكون بالواحدة الا أن تكون هناك ضرورة ما يبيح التعدد . فالامر بنكاح ما فوق الواحدة إنما يفيد الاباحة لا التدب ولا الوجوب .

واباحة الشارع التعدد عند الضرورة له ما يبرره بل ما يستلزمه . فان الحضارة الاسلامية تنظر الى المشاكل البشرية من جميع جوانبها بخلاف الحضارة الحديثة فهي تنظر الى المشاكل من بعض جوانبها وتفغل البعض الآخر فتقدم لها الحلول التي لا تخلو من الأخطاء الفاحشة . أما الاسلام فانه يقدم للمشاكل البشرية حلولاً سليمة معصومة من الخطأ لأنها قد نتجت عن استيعاب المشكلة من جميع حيثياتها .

فبالاسلام إذ يبيح التعدد عند الضرورة يأخذ بعين الاعتبار الأفراد الكثيرين الذين تلجؤهم الظروف المحيطة بهم الى أحد أمرين : إما التعدد وإما الى الوقوع في الفوضى الجنسية . فكان لا بد له من اباحة التعدد اعتبارا لوجود ارتكاب أخف الضررين . ان التشريعات الموضوعية التي تحرم التعدد تحريما مطلقا لا مناص لها من أن تبيح

الفوضى الجنسية فتكون قد هربت من خطر الى خطر أفحش منه او تكون متناقضة مع نفسها . والا فماذا يقول هؤلاء في متزوج أمضى مع زوجته عشرات السنين وأصبحت أما لاولاده الكثيرين وانصبروا في بوثة واحدة فأصبحت بعاهة مزمنة في عضو من أعضائها فأصبحت بحيث تتعسر أو تتعذر الحياة معها كزوجة . أطلقها بوحشية من غير جرم ارتكبته فتصبح فريسة القطيعة والعاهات أو يمضى معها بقية حياته محروما محملا مالا يطيق ؟ أليس السبيل الوحيد لهذا أن يتزوج بثانية فينقذ نفسه وينقذها من الحياة المريرة الأليمة . وكم يوجد من هذا الصنف في كل مدينة وفي كل قرية . وصنف آخر من الناس لا يقل عن أرائك عددا يتزوج في موطنه وبعد مدة قد تطول وقد تقصر تضطره ظروفه الخاصة وحياته العملية الى أن ينتقل الى موطن آخر ولا تطاوعه زوجته على التنقل معه وقد كلفت به وكلف بها فكيف يجرا على طلاقها والانفصال عنها بدون سبب معقول . ؟

اننا نعتبر جريمة الطلاق أخطر من جريمة التثنية والتأثيث ان صح ان نعتبر ذلك جريمة . وكم يوجد من اصناف كثيرة مثل ذينك الصنفين الذين ذكرناهما . وحيث تقرر أن الزيادة على الواحدة لا نباح الا عندما تقتضى الضرورة ذلك وتحتّم أن يحاط الاذن بتعدد الزوجات بتشريعات قضائية وبقيود وشروط تناسب الروح الاسلامية وتناسب منطق الواقع والتطور البشرى الضرورى للحياة . ولو فتح باب اباحة التعدد على مصراعيه وترك الامر الى كل فرد أن يعمل فيه حسبما تمليه عليه أهواؤه وميوله الخاصة لتجت عن ذلك مشاكل خطيرة في الميدان الاجتماعى والاقتصادى لا تعد ولا تحصى بل ستتعدى الجيل الحاضر الى الاولاد والاحفاد وذلك زيادة عن كونه أجهلا بحق المرأة . ولهذا يجب إعادة النظر في المسألة على أساس شرعى تطورى . ولقد توصل بعض فرق المسلمين

الى حل هذه المشكلة حلا مرضيا وذلك في البلاد الجزائرية بالذات وقبل أن تطأ أقدام فرنسا أرضنا بمئات السنين . فتعاهدوا على أن يدرجوا في خطبة عقد الزواج شروطا على الزوج محددة يوافق عليه الطرفان عند العقد بمحض العقاد . نذكر منها شرطين وهما :

أن لا يتزوج عليها ولا يغيب عنها أكثر من ثلاث سنين . وإذا فعل شيئا من ذلك بدون إذنها ورضاها فالها أن تفسخ العقد وتحرر من الزوج نهائيا . ولا يزال العمل جاريا عندهم بهذا القانون الى الآن . ولما كانت قضية تعدد الزوجات تتصل اتصالا وثيقا بمشكلة تكثير النسل وتحديدده فيجدر بنا أن نطرق الموضوع بشيء من التفصيل خصوصا من الوجهة الشرعية . فان كثيرا من المتطفلين على التشريع والافتاء يستفلون مثل هذه المشاكل الطارئة فيحاولون أن يجنبوا نور الاسلام بأفواههم من أن يستضىء به العالم باسم الدفاع عن الدين جلا منهم بفلسفة الشريعة وروحها أو اشتراء منهم بآيات الله ثمنا قليلا . ومن ذلك تحريم هؤلاء لتحديد النسل بدون قيد أو شرط .

ولا ريب أن ما اتفقت عليه أئمة المسلمين قديما هذه القاعدة (الضروريات تبيح المحظورات) وهذه القاعدة مستمدة من قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) . ومن الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رفع عن امتي ثلاثة : (الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه) .

فاذا تقرر بواسطة الاختصاصيين من الخبراء أن الامة قد أصبحت من كثرة النسل بحيث هى مهددة بالخطر كان من الواجب حينئذ اتخاذ الوسائل اللازمة لتحديد النسل .

فان التحديد اذ ذاك يكون عملية انقاذ وحياء . لاعلمية قتل الاولاد كما يدعى بعض الجهلة بروح الشريعة اذ لا يصح قياس تعقيم

على توفير وسائل السعادة والراحة والسلام وغير ذلك مما هو الهدف الحقيقي من الرسائل الالهية .

ومن وسائل تحديد النسل : التقييد من تعدد الزوجات ومن الزواج المبكر الذى كثيرا ما يحدث قبل الأوان . والانعتاق مما كان عليه العالم الاسلامى من عادات فاسدة لتعاليم الدين الحنيف ولما يقتضيه المنطق الصحيح وهو الطلاق الفوضاوى الذى لا يركز على أساس معقول . ومن الغريب حقا أن نرى الفرق الهائل الذى كان بين هذا الدين المثالى وما يدعو اليه من المبادئ السليمة وبين ما أصبح عليه معتنقوه من انحراف بعيد وانحطاط الى الدرك الاسفل فى كثير من الميادين .

وسر هذا عندنا واضح بسيط وهو أن المسلمين كانوا يعتمدون فى نشر دينهم غالبا على مجرد الوعظ والارشاد لا على التشريعات القضائية والعقوبات الرادعة التى تحمى مبادئه وترسخها فى النفوس حتى تصبح جزءا من كيان الشعب الاسلامى . فرغم تشديد الشارع تشديدا صارما فى أمر الطلاق ورغم تحريضه واجابته للمحافظة على العلاقات الزوجية قدر الامكان . حتى روى أن آخر ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى حياته (اتقوا الله فى النساء وما ملكت اليمين)

رغم كل ذلك نرى أن فصل العلاقات الزوجية كان عند المسلمين شيئا هينا بسيطا ليس له من الاهمية عندهم قليل ولا كثير . وهذا المرض الاجتماعى قد أدى الى ضياع كثير من النسل وانحلاله وخطر من ذلك كله زوال ثقة الرجل من المرأة وثقة المرأة من الرجل . وحيث نتعمد الثقة ينهار البنيان على قواعد .

لهذا اعتنى الشارع كثيرا بهذه المسألة وأولاهها ما تستحقه من الشرح والتفصيل فانزل فيها سورة كاملة خصص لها معظمها . هي

النطفة أو تعقيم الرحم على قتل الاطفال بعد أن أصبحوا بشرا سوريا فهو قياس مع وجود الفارق كما يقول الأصليون . فاحتجاجهم فى هذا المقام بنحو قوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) احتجاج خاطئ . على أن مشكلة تحديد النسل ليست من المشكلات المختصة بعصرنا هذا . فانها مشكلة قديمة وقد طرقها قدماء الفقهاء من المسلمين فى كتبهم واختلفت فيها نظرياتهم بل قد اختلف فيها الصحابة أنفسهم حتى قال جابر بن عبد الله : كنا نعزل القرآن ينزل . والعزل (١) هو الوسيلة الوحيدة لمنع النسل يؤخذ . ولقد هم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أن يحدد النسل بوجه من الوجوه قال : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فرايت الروم والفرس يصنعونها ولا تضر بأولادهم » . فافهمنا أن علّة عدوله عن التهى هى عدم وجود الخطر من الغيلة حينئذ . فتوقع الخطر اذن يستلزم التهى . (والغيلة لغة هى الجماع فى شهر ر (الرضاع) .

ثم أنه لو كان تعقيم النطفة من قبيل قتل الاولاد كما يدعى أولئك المتطفلون على الشريعة لحرم التزوج بالمرأة العاقر . على أن الحياة البشرية قد تطورت حتى أصبحت مختلفة عن الحياة القديمة تماما سواء فى شكلها ومظهرها أو فى روحها وجوهرها . فأصبحت معقدة الى حد بعيد . فوسائل تربية النسل وغاياتها مختلفة فى عصرنا هذا عن ماكانت عليه فى عصر أجدادنا . والاسلام من حيث أنه دين خالد . من قواعد الثابتة مراعاة مثل هذه الفروق وملاحظتها ولا تركت الأمة وشأنها فى تكثير النسل وتوفيره مع العجز عن توفير أسباب الحياة اللازمة لكانت النتيجة الحتمية انتشار الجهل والفقر والمرض والبطالة وبالتالي انتشار الفوضى والجريمة والفتنة والفساد فى الارض . فقد يكون العمل على تحديد النسل اذن من باب العمل (١) العزل : هو افراغ النطفة خارج الفرج ويقع ذلك غالبا تهرىبا من الحمل .

سورة الطلاق — ثم شرع المدة وحتم على الزوجة البقاء مع الزوج مدة أيام المدة لأنها لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

والأهم من ذلك كله أنه أوجب على الأمة أن تلجئ الزوجين المتنازعين إلى التحكيم قبل أن يقدموا على الانفصال . أوجب ذلك بقول الله تعالى (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدوا أصلاحا يوفق الله بينهما) . فما المانع إذن من أن يحاط أمر انفصال العلاقات الزوجية ببعض الشروط التي لا تنافي روح الشريعة والتي تقيد الأفراد النازقين الطائشين من العمل على هدم كيان المجتمع كله عن قصد أو عن غير قصد . على أن تكون هذه الشروط مرنة واقعية بحيث لا تؤدي إلى انتشار الفاحشة بواسطة إرغام كل منهما أن يعيش مع الآخر كرها . فإن ترك المسألة على الصورة التي توجد عليها الأمة الإسلامية من إطلاق العنان لكل فرد أن يعمل حسب ما تمليه عليه دسئسته الخاصة سيؤدي حتما إلى الخلل والفوضى كما أن التشديد المطلق في أمر الطلاق أو حضره كله يؤدي هو أيضا إلى الخلل والفوضى وانتشار الجريمة وتضعف العلاقات الزوجية أو انعدامها بالكلية .

ونحن لا ندعو إلى العمل بالقوانين المدنية الحديثة أو قبولها برمتها في هذا الباب . فإن ما تشتمل عليه تلك النظم الفاسدة من العواقب أوخم مما كان عليه المسلمون من إطلاق الحبلى على الغارب وأدنى تلك العواقب : التجاء كثير من الأزواج إلى قتل بعضهم بعضا أو الانتحار إذا تطلعا إلى القطيعة والفراق فاعوزتهم الرسيطة إلى ذلك أو تعمست . — والذي ننكره وننتقده ونتمنى أن يوضع له حد هو أن يطلق الرجل زوجته من أجل عراك أو تنافر بينها وبين أمه أو أخته مثلا أو بينه وبين فرد من أفراد عائلتها . فمما لا يسيغه شرع ولا عقل أن يهدم كيان الأسرة بل كيان الأمة كلها من أجل تنافر بين أفراد من العائلتين المتصاهرتين . وهل يقال بعد ما تقدم كله

أن تقييد الطلاق وإخضاعه لإجراءات قضائية بدعة في الإسلام ؟ . وأنه لو كان ذلك مشروعا لسبقنا إليه الصحابة والتابعون .

فإننا نقول إن دين الإسلام وإن كان قد كمل من حيث أسسه ومبادئه العامة فإن تلك الأسس نفسها قد اشتملت على ما يجارى تطورات البشر كلها إلى نهاية الدهر . فقد قدم لكل مشكلة طائفة الحل المناسب لها . لهذا أحدث أبو بكر الصديق من النظم والإجراءات ما لم يكن في عهد الرسول وأحدث عمر الفاروق ما لم يحدثه أبو بكر الصديق . ولم يزل التشريع الإسلامي يواكب تطور الحياة العربية والعالية إلى أن تحجرت العقول فحلت السلبية والأجمود محل الإيجابية والنشاط فكان ما كان . وذلك بعد القرن الرابع الهجرى . أفلا يجدر بنا ونحن نحاول النهوض على أقدامنا ونتسلم مهام رسالتنا في الحياة كمسلمين أن نعود إلى ما كان عليه أسلافنا من الاستنباط والابتكار كي نعيد للشريعة الطاهرة هيبتها وسلطانها .



الفصل السادس

الاسلام والتطورات العالمية من الوجهة العقائدية

لقد كانت البشرية تتجاذبها منذ اول عهدها نزعتان مختلفتان :
الاولى — مادية حسية نفعية تستمد كيانها مما ركز في الفطرة من اعتبار اللذة والالام . والنزعة الثانية روحية معنوية غيبية تستمد كيانها مما ركز في أعماق الفطرة من احساس بان هناك شيئا ما وراء الطبيعة مجهولا . له الهيمنة العليا . فالنزعتان اذن كلاهما تنبثقان من ينبوع الفطرة التى ركب عليها البشر . الا ان هاتين النزعتين تختلف نسبتهما في الافراد قوة وضعفا . فمن كانت النزعة الاولى اقوى فيه نسبة من النزعة الثانيةسمى ماديا او ملحدا او غير ذلك من الاسماء المتعارف عليها . ومن كانت النزعة الثانية اقوى فيه من النزعة الاولى سميها روحانيا او متدينا او ما أشبه ذلك من الاسماء . فمن المستحيل ان تختفى احدى النزعتين او كلاهما تماما من أى فرد من الافراد . وانما كانت المعركة مستمرة من قبل اختلاف نسب النزعتين في الافراد ومن ثم يتبين لنا ان التدين جزء من فطرة الانسان وطبيعته التى لا ينفك عنها ولا تنفك عنه ما دام موجودا على هذه الارض . اما وظيفة الانبياء والرسل والزعماء الدينين فانما هى اذكاء هذا الميل الطبيعى وتغذيته وتوجيهه وتطويره تطويرا سليما حسب ماتقتضيه الظروف والاضاع المتغيرة بتغير التاريخ . لهذا سمي القرآن ذكرا . واكثر من كلمة

الذكر والتذكر والذكرى والتذكرة وغير ذلك من المعانى التى تدل على ان وظيفة الرسول انما هى مجرد تنشيط وتحريك لجانب من جوانب طبيعة الانسان المتعددة الاطراف والاتجاهات . وهكذا لم تزل المعركة تدور رحاها حول تينك النزعتين بين افراد البشر الى ان تغير العالم تغيرا فجائيا وجذريا في القرنين الماضيين . فطفئت هذه المدنية الحديثة الجارفة وخابت الالباب ببريقها ولعانها فانجذبت البشرية اليها انجذاب الفراشة الى مركز الضوء طربا وانتشاء ففتر ذلك النزاع العقائدى نوعا ما . فتحولت المعركة تبعا لتحول الاوضاع المتباينة لهذه المادية الطاغية . فاستولت الشيوعية والرأسمالية وما بين ذلك من المذاهب الاقتصادية على طرفي المعركة الكبرى فاصبحت المعركة القديمة في الدرجة الثانية بالنسبة للبشرية جمعاء . غير انها لم تنسحب ولن تنسحب من الوجود بالكلية بل ستعود قريبا الى مرتبتها الاولى . وقد اخذت في العودة فعلا .

فان الفتور الذى اصاب المعركة الاولى والذى نقلها من الميدان الاول الى الميدان الثانى انما كان نتيجة ظروف استثنائية لا تلبث ان تزول . فالفطرة التى مرت عليها البشرية في القرنين الماضيين انما هى مرحلة انتقالية اجتازتها لتنتقل من طور ذلك الماضى المأد البسيط الى هذا الطور المعقد المتصف بالسرعة العلمية والمفاجآت . لذلك اصبحت البشرية حينئذ بهزة نفسية عنيفة واصيبت بصدمة قوية في كيانها الفكرى والعقائدى حتى وقعت في شبه ذهول عن نفسها ففرقت في بحر من التيه والحيرة والغرور . ولقد صدق من سمي ذلك العصر بعصر الغرور العلمى . ومنهم الفلاسوف الفرنسى (قوستاف لوبون) اما الآن فقد اخذت الانسانية زفبق من سباتها وتبحث عن نفسها وتشعر بخطر ذلك الغرور العلمى الذى كان يحيط بها وتشعر ايضا بخطا ظنها انها قد بلغت المرحلة

وغيرها من الثورات التي قامت حينئذ ضد العقيدة الدينية وما كان لها من أثر عميق في انتشار موجات اللاحاد والاباحية في العالم .
نظرة قصيرة الى ذلك تكفى لان يتضح لك جليا صواب ما تقدم من البحث في هذا المقام .

وها نحن الآن نرى البشرية أخذت تشعر بان الشقاء الذى يصيبها لم يكن مصدره التدين كما كانت تتوهم من قبل يوم ثارت على العقيدة انقاذا لنفسها وتحررا من قيودها المرهقة على زعمها بل أدركت أن ذلك الشقاء قد ازداد على ما كان من قبل وأن تلك العلوم المادية والنظريات الحديثة لم تستطع ان تخفف من ويلاتها شيئا كما كانت تتوقع حين استبدلت هذه العلوم والنظريات بالعقيدة الدينية الماضية .

ان الاعصاب قد أصبحت محطمة والحياة ملتوية والخيانة منشورة والمعهود مارجة واصبح القلق والحيرة والتردد من اخص خصائص أهل هذا العصر الذى نعيش فيه . وهذا هو الذى يضطر البشرية من جديد الى أن تضعف ثقتها بمعارفها ونظرياتها الحديثة وتحاول البحث عن عقيدة تحميها وتاريخها وتتحصن بها .

وسوف لا تكون هذه العقيدة الاعقيدة الاسلام لان هذا الدين دين يسر قابل للتطور مرن مطابق للفطرة ليس فيه من التعقيد والالتواء ما يعوق البشر عن اعتناقه . والعائق الوحيد الذى يعوق الاسلام عن أن ينتشر فى الأرض كما كان ينتشر من قبل انما هو أهله وبعبارة أوضح عدم تصور أهله له تصورا واضحا وعدم تمثيلهم له تمثيلا صحيحا . فقد أصبحت طائفة كبيرة منهم محطمة سلبية جامدة قضا عليها الياس والتشاؤم والقنوط .

هؤلاء يعتقدون أن الاسلام لا يمكن أن تقوم له قائمة وأنه من المستحيل أن تنجح محاولة رد مجده الى الوجود وتمكينه فى النفوس من جديد . فكان قصاراهم التياحة والبكاء ورثاء الماضى . مثلهم كمث

النهائية فى الميدان العلمى والفكرى . فقد تبين لها أن ما بلغت من العلم والفكر ما هو الا نقطة من الفضاء اللانهائى وخطوة أولى فى طريق مظلم مجهول طويل لا حد له .

تبين لها كل ذلك فأخذت تبحث عن ركن شديد من العقيدة والايامن تاوى اليه وعن قبس من نور يكشف لها مواقع أقدامها فى تلك الظلمات الحائرة الحالكة التى لا نهاية لها . وما أصاب البشرية فى العصر الماضى من اضطراب وافراط شىء طبيعى بالنسبة لتطورها . مثلها فى ذلك مثل الانسان الذى ينمو صغيرا حتى اذا بلغ الحلم أصابه من الفلمة والثوران ما يخرج به عن التصدد ويؤدى به الى التشنج فاذا تقدمت به السن عاد اليه رشده واتسم بشىء من الرصانة والاعتدال . لهذا نؤمن بان المستقبل الفكرى للبشر قد أخذ يعتدل ويعود اليه توازنه الطبيعى بعد أن احتل بسبب ما شرحناه . فالعاقبة الحتمية ستكون للعقيدة السليمة والبحث عنها ومحاولة الوصول اليها .

ولئن ساد الفرور العالم فى العصر الماضى وسادته الحيرة والشك والبحث فى عصرنا هذا فسيسوده اليقين والوصول الى الاطمئنان فى المستقبل القريب .

فان الشك اول درجات اليقين .

وسيتبين لك ما شرحناه لو قارنت بين ما كانت عليه أوروبا فى القرن التاسع عشر من التفور والابتعاد عن اية عقيدة دينية والاجتهاد فى تحطيمها وبين ما أصبحت عليه الآن من العطف على تلك العقائد الدينية التى كانت تنفر عنها كل التفور ومن تأييدها ومحاولة التقرب منها . وانما ضربنا مثلا بأوروبا لانها كانت المركز الوحيد للتطور الحضارى يومئذ . ونظرة قصيرة الى ما نتج عن الثورة الفرنسية والثورة التركية والثورة الحمراء الروسية

الذى له صديق عزيز ففاضت روحه بين يديه فجعل ينظر اليه
نظرة المودع العاجز عن أن يملك له رد شيء من حياته .

أتدري لماذا كان هؤلاء كذلك . أنهم اخطأوا في تصور الاسلام
والمسلمين . يقدسون آباءهم وأجدادهم ويقدسون الصحابة
والتابعين الى حد أن صورهم تنطبع في أذهانهم في جملة صور الملائكة
المقربين فيجدون الفرق كبيرا وشاسعا بين تصورهم الذهني
للاسلام والمسلمين وبين الصورة الخارجية وواقع الحياة الذى
يشاهدونه ويعيشون فيه . فإذا رأوا فردا من أفراد المسلمين قد زلت
به قدماه أو شعبا من الشعوب الاسلامية قد انتشرت فيه خصلة
من الخصال المنهى عنها تاوهوا وصرخوا وناحوا على الاسلام
واعتقدوا أن الاسلام قد انتهت أيامه الى الابد . فهؤلاء يعوزهم
العلم الاجتماعى والتعمق في فهم الطبيعة البشرية وتاريخ المسلمين .

فقدوا الثقة بنفوسهم وفقدوا النور الذى تستضيء به نفوسهم
فضلا عن أن يستضيء به غيرهم فكانوا آلة هدم بدلا من أن يكرنوا
آلة بناء .

فإن اليأس لا يئذ حوله الا اليأس . فمن المستحيل إذن أن يتقدم
الاسلام خطوة أو ينتشر في الارض على يد هذه الطائفة المحطمة .

وطائفة أخرى من المسلمين استحوذ عليها زخارف هذه المادية
الجارفة ولاؤها وذابت شخصيتها في الشخصية الغربية الحديثة .
فهؤلاء أصبحوا مجرد أطفال مقلدين لغيرهم يبيتون معهم حيث باتوا
ويقولون معهم حيث قالوا يرددون أقوالهم ويقتفون خطواتهم
ويتشددون بما لقنوا من أن الاسلام لم يعد صالحا للبقاء في هذا
العصر . عصر الذرة . فاعتقدوا أن سبب تأخر آباءهم عن الركب هو
الدين . وأنهم لو تحرروا من قيود الدين لاستطاعوا أن ينطلقوا الى
عالم الزهرة أو عالم المريخ في أقرب من لمح البصر .

والطائفة ، الاولى أشد خطرا على الاسلام لانها هي التى تشق
الطريق وتمهده لهذه الطائفة . وحيث أن مرض الطائفتين واحد وهو
التقليد الناتج عن فقدان الشخصية وحيث أن العالم الاسلامى قد
أخذ يسترد شخصيته السياسية والاقتصادية نوعا ما فستنبثق عن
الطائفتين طائفة ثالثة معتدلة في عقيدتها معتدلة في سلوكها معتدلة
في تأثيرها وتأثيرها واثقة بنفسها وستفصل عنها عار التقايد بنوعيه:
تقليد الاموات من الآباء والاجداد وتقليد الاجانب من أهل الفى
والقساد .

وهنا نلاحظ أن خطأ كثير من المتدينين وانقسامهم على أنفسهم
إنما كان من قبل خطئهم في فهم العقيدة الدينية نفسها . فإن كل واحد
منهم يعتقد أن الدين هو ما يتصور في نفسه أنه دين . على حين
أن التصور الدينى يختلف بحسب اختلاف الافراد من حيث
استعداداتهم الباطنية ومن حيث ثقافتهم وبيئاتهم وأوضاعهم الاجتماعية
وغير ذلك من العوامل المختلفة التى تؤثر في كل فرد وتكيفه على
حده . فالصورة الذهنية للدين التى تنطبع في نفس زيد ليست هي
الصورة التى تنطبق في نفس عمرو بالذات . ومن ثم تقع الانشقاقات
الحادة الخطيرة بين المتدينين .

إن البشر لا يتفقون عادة في تصورهم للأمور الحسية نفسها
كالجمال والقبح والحلاوة والحموضة فضلا عن أن يتفقوا في الأمور
العقلية فضلا عن الأمور الفيزيائية الفاضة . فإذا فهمت العقيدة
الدينية على هذا الوجه انفتحت لك الابواب المغلقة واتسع أمامك
الافق الفسيح الذى لا نهاية لرحابته . وقد أشار القرآن في كثير من
الآيات الى ما ذكرناه (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن
هو أهدى سبيلا) — (قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب
والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) .
فالقرآن يرى أنه لا يمكن أن يميز بين المسلم وغيره الا الله وحده .

ان العقيدة الدينية عموما والاسلامية خصوصا ترتكز على ثلاثة
اركان اساسية :
الاعتراف بالالوهية والاعتراف بالرسالة والاعتراف باليوم الآخر
والجزاء .

ونحن نقتصر هنا على شرح الركن الاول لانه هو الاصل للركنين
الباقين . لا شك أن الانسان لم يزل منذ وطئت قدماه هذه الارض
ولن يزال الى أن يفنى آخر فرد منه حائرا مدهوشا تقلقه هذه
الاسئلة :

ما هو هذا الكون ؟ ومتى وجد ؟ والى أين يذهب ؟ وكيف يكون
مصيره ؟ وأخيرا من الذى أوجده ؟ . تلك أسئلة لا تفارقه ولا تتركه
يهذا لحظة عنها وينساها الا اذا طرأ على قلبه طارئ يشغله عنها .
فمن الحسى البديهي اذن أنه لا بد لهذا الكون من موجد أوجده ومن
المستحيل على الانسان أن يتصور خلاف ذلك فقد استقر ذلك في نفسه
بطريق الشعور والوجدان .

بقى أن نعرف من هو هذا الموجد اذن . وهنا مفترق الطرق حيث
تختلف البشرية الى مذاهب كثيرة لا حصر لها . تختلف بحسب
اختلاف أوضاعها او ثقافتها والزمان والمكان المحيطين بها . ونحن
نعرض صفحا عن ذكرها لان التعرض لها يخرجنا عن الخطة التي
رسمناها .

انما نتعرض لمذهبين اساسيين هما اللذان يسودان عالمنا في
عصرنا هذا .

فالاول يرى أن الكون قديم لا بداية له ولا نهاية . وكل ما نرى
فيه من النتائج المتسلسلة بعضها عن بعض انما تنتج بمقتضى تفاعل
طبيعى وبطريقة ذاتية .
والثانى يرى أن هناك قوة خفية ذات علم وقدرة وارادة وتدبير .
هى التى تؤثر في كل ما كان وما يكون وتنسقه حسب خطة
معينة .

فالذى يكفر أخاه ويحقد عليه وينقم منه لمجرد اختلاف بينهما في
قضية دينية مهما كانت تلك القضية مخطيء كل الخطا مع قطع النظر
عن كونه معذورا في ذلك الخطا او لا . فقد يعذر وقد لا يعذر . وقد
تفطن لهذه الملاحظة المسلمون الاولون قبل أن يطرا على الاسلام ما
طرا من الصدا والرین . قال ابو الشعفاء جابر بن زيد التابعى
رحمه الله : « لا يحل للعالم أن يقول للجاهل اعلم مثل علمى والا
قطعت عذرك ولا يحل للجاهل أن يقول للعالم اجعل مثل جهلى والا
قطعت عذرك » .

فالكفر في نظر القرآن أمر ايجابى لا سلبى كما يتوهم الكثير .
فليس الكفر هو مجرد عدم العمل بالحق او عدم الخضوع له بل
هو انكار الحق او التهاون في القيام به لفرض ما بعد قيام الحجة
والاقتناع التام . فالذى لم تبلغه كلمة الاسلام اصلا او بلغته في
صورة مشوهة ولم تتوفر له الوسائل الاقتناعية التى تجعله يميز بين
الحق والباطل لا يعد مجرما في حق الشارع ولا يستحق العقاب
الابدى . (ان الله لا يظلم الناس شيئا) — (ان الله لا يظلم مثقال
ذرة وأن تك حسنة يضاعفها) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة .
فندبر قوله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابغين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند
ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

فالناس كما يقول الاستاذ محمد الغزالي على ثلاث طوائف :
مؤمن ، وكافر ، وجاهل .

وانما طرفنا هذا الشجن من الحديث لتبين مقدار تسامح
العقيدة الاسلامية ومقدار مواكبتها للتطورات العالمية . وقد رأينا
قبل أن نختم هذا البحث أن نستعرض صورة العقيدة نفسها من
الوجهة الموضوعية على طريق الايجاز فنرى الى اى حد تبلغ
واقعيته وحقيقتها .

وحجة الاولين سلبية مادية صرفة خالية من الدعائم المنطقية الواقعية . يقولون ان الاعتقاد بوجود قوة خفية مغايرة لهذا الكون متصرفه فيه عن قصد يحتاج الى برهان حسي . ونحن اذا لم نشاهد هذه القوة بحواسنا لا يمكن ان نؤمن بوجودها . ونسئى هؤلاء ان ذلك التفاعل الطبيعي الذى نشاهده أو نشاهد كيفيته . لا نشاهد حصوله بطريقة ذاتية ولا يستطيع أحد ان يدعى ان له برهانا حسيا يثبت ان ذلك التفاعل يحصل بطريقة ذاتية .

فاذا بذرنا فى الارض حبة ورايناها بعد أيام قد استحالت الى نبات أخضر الى عروق وجذور وأوراق فقصارى ما يمكن ان نشاهده فى هذه العملية هو تكيفها واستحالتها وملاحظة أدوارها من امتصاصها لعناصر معينة وتحولها . فمشاهدتنا لا تتعدى ملاحظة عمليات التركيب والتحليل المختلفة . أما ان نقطع ان تلك الاستحالة تحصل بطريقة ذاتية أو بواسطة قوة خارجية فهذا ما لم يبلغه علم البشر بعد . فلماذا يدعى هؤلاء ان ذلك التفاعل حاصل بطريقة ذاتية على ان التجارب العلمية قد أثبتت ان مشاهدتنا للأشياء لا تعكس حقيقتها دائما بل كثيرا ما تكون حقائق الأشياء التى نشاهدها مخالفة تماما لمشاهدتنا لها .

لقد كان الناس يعتقدون ان الارض ثابتة والافلاك تدور من حولها بناء على مشاهداتهم واحساساتهم حتى اكتشفت البحوث العلمية بطريقة قطعية ان الارض تدور فى جملة الافلاك الدائرة فى الفضاء . وكم كان من هذا المثل أضراب لا تعد ولا تحصى .

ان مشاهدة البشر واحساساتهم قصيرة ناقصة ضئيلة جدا الى حد أنها لا تكفى فى ان يكون الحق هو ما تثبتته وتحس به . لذلك تجد البشر مجتهدين دائما فى البحث والتنقيب متطلعين مستهاكين كل قواهم فى محاولة اكتشاف ما كان كامنا وراء مشاهداتهم واحساساتهم . ولا يكون فى اى حال من الاحوال عدم

مشاهدتنا لشيء دليلا على عدم وجوده . وقد قالت الفلاسفة : عدم العلم ليس علما بالعدم . وقد يكون مثلنا بالنسبة الى خالق هذا الكون مثل الانسان الذى يشاهد آلة من الآلات الميكانيكية المعقدة الجبارة تعمل دون ان يشاهد مديرها . أقمن اللائق له ان يعتقد أنها تعمل بطريقة ذاتية . أرايت لو ان رجلا شاهد لأول مرة فى عمره آلة تحصد الحب وتدرسه وتعبئه وتضع التعبئة فى مكانها بكل دقة دون ان يرى أو يشاهد مدير الآلة فخضع لملك الآلة واعتقد قدرتها على الخلق والتصرف ورفع قيمتها فى نفسه أكثر مما يجب . أفلا يكون هذا الرجل عندنا من الجهل وبلادة الحس والمسقوط بحيث يرى له . أفلا يكون مثارا لسخرتنا واستهزائنا ؟ وماذا تكون مشاهدتنا واحساسنا معشر البشر بالنسبة الى هذا الكون الهائل الذى لا نهاية له وبالنسبة الى ادارته ومديره الذى يستحيل على عقولنا المحدودة القصيرة ان تدركه أو تطمح فى أدراكه ما دامت عاجزة على ادراك اقل قليل من هذه المادة التى هى جزء صغير جدا من هذه العوالم التى لا حصر لها .

ومدار الخلاف كله بيننا وبين الطبيعيين يرتكز على هذه النقطة على الاجابة عن هذا السؤال : ما الذى جعل العناصر المادية تتحول وتتفاعل باستمرار . . ؟

فان قالوا هو شيء مجهول عنا وسر من الاسرار اتفقنا . فان هذا الشيء المجهول هو الذى نعبده ونسميه « الله » لانه ان كان مجهولا بعينه فهو معروف بآثاره . وان قالوا ان تلك العناصر تتفاعل بنفسها وبطبيعتها بمعنى أنها واجبة الوجود اضطرارية التفاعل قلنا ان المادة على اختلاف أشكالها وأنواعها الغير المتناهية ترجع فى أصولها الى عناصر محدودة . فهل نجد برهانا قطعيا على ان تلك العناصر قديمة منذ الازل تتفاعل نفس التفاعل الذى نشاهده أو هى متولدة من عناصر أخرى قديمة واجبة الوجود . ما هو

برهانهم القطعى لا النظرى على ذلك . . ؟ على أن العناصر التى تتولد عنها هذه المادة التى نشاهدها لم يستقر ضبطها بعد . فمن المرجح أنها تنحصر كلها بعد التمهيص فى عنصر أو عنصرين أو فى عدد قليل جدا من تلك العناصر . فالوجود كله يدور على الوحدة ويرجع إليها . فلا بد إذن لهذا الأصل الذى انبثقت عنه هذه المادة كلها من مدبر هادى يدبر ذلك الأصل وكل ما ينشأ عنه بدقة واحكام . ولنا فى حياتنا العادية مثل واضح يقرب الى عقولنا تشخيص هذه الحقيقة ان كل نشاط العالم الآن يتوقف على عنصرين اثنين : الوقود — والكهرباء — فلو انقطعت المادتان يوما من الايام لتعطلت فوراً كل ميادين الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة ونقل وغير ذلك من الاعمال فمعمل واحد للكهرباء يمكن أن يسير أنواعا من النشاط لا تحصى ويتصرف فى كثير من المواد بواسطة ذلك التيار السارى فى أسلاكه . وهذا مثل للمادة الهائلة التى تتولد كلها بطريق التفاعل من عناصر قليلة .

وغرضنا مما ذكرناه أن نبين أن العناصر القليلة التى تتولد منها المادة لا يوجب العلم أن تكون قديمة وأن يكون وجودها ذاتيا وانما قلنا انه لابد لها من مدبر يدبرها ويدير ما ينشأ عنها بواسطة تفاعلها لما نشاهده فى الكون من هذا النظام البديع والجمال الرائع والانسجام الباهر والتناسق المعجز .

وليس من المعقول فى شيء أن يحصل هذا الاتساق الكامل لمجرد تفاعل المادة الصماء تفاعلا اضطراريا . (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) الآية .

والحق أن عصر الغرور العلمى قد انتهى أو كاد وأن الراسخين فى العلوم الطبيعية والرياضية قد أصبحوا يهتدون بمقتضى تلك العلوم الى الإيمان والاعتراف بوجود الله . فان الاعتقاد الذى

كان يسود فى القرن الماضى مدعيا وجود تناقض كبير بين العلوم والدين قد أخذ يتلاشى ويحل محله الاعتقاد بأن العلم يدعو الى الإيمان . وان الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين العلماء والمتدينين قد أخذت تضيق وتتضاءل شيئا فشيئا بل لم يكن لها وجود الا فى طبقة التلاميذ والمقلدين المتأخرين عن الركب الثقافى والعلمى بمسافات بعيدة .

والمنكرون انما ينكرون وجود الله غالبا لأحد أمرين: اما ليلطبعهم الى التحرر والانطلاق من القيود الاخلاقية والجدية التى يستوجبها عليهم الاعتراف بوجود الله . فان الانسان مطبوع على الميل الى ما فيه لذته وراحته وحظوظه النفسية على ما فى ذلك من شقائه الا من أخذ نفسه بالجد ومرنها على العمل والجهاد . واما لعدم فهمه الدين فهما صحيحا لانه كثيرا ما يتلقى الانسان هذه الايمان من خلال ما يراه من الانحرافات والخرافات والأوهام التى علفت بالمتدينين فى القرون الماضية .

الفصل السابع

الاسلام والتطورات العالمية من الوجهة الاجتماعية

مما لا شك فيه أن المجتمع الذى نزل فيه القرآن مغاير لمجتمعنا هذا تماما سواء من الناحية الشكلية أو من الناحية الجوهرية . ومما لا شك فيه أيضا أنه لا فائدة من وضع القوانين وتنفيذها إلا حماية الشعوب التى وضعت لها تلك القوانين وتهذيبها .

فالواجب إذن يقضى أن تستمد التشريعات وجودها وبقائها من روح نفس تلك الشعوب وأوضاعها والا ضاعت حكمتها وفائدتها . فما يصلح قانونا لشعب فى الجزيرة العربية مثلا قد لا يصلح أن يكون قانونا لشعب فى افريقيا الاستوائية وما يصلح أن يساس به أهل القرن الاول لا يصلح أن يساس به أهل القرن العشرين . فالتشريعات كى تكون مثمرة يجب أن تتطور حسب ظروف الزمان والمكان وحسب الأطوار التى تمر عليها البشرية . فكيف يمكن أو كيف نطالب أن نخضع لقانون مضى على صدوره أكثر من ثلاثة عشر قرنا وفى منطقة خاصة من العالم ؟ ذلك ما يقوله اعداء الاسلام وخصومه .

وأكبر مشجع ومساعد لأولئك الأعداء على هذا القول هم الجامدون المتحجرة عقولهم من الذين يدعون أنهم مسلمون والذين يعتبرون أن دين الاسلام هو مجموعة من الأشكال والطقوس يجب تطبيقها حرفيا وبدون أى نظر أو تدبير . أما نحن فنقول ان شريعة الاسلام بريئة مما يدعيه هؤلاء وهؤلاء . لان الاساس الذى تقوم عليه والنقطة التى تدور حولها هى التوجيه والانعاش الفكرى

المتطوران اللذان ترتكز عليهما الحياة كلها . فهى إذن بمثابة التور والغذاء والماء والهواء ونحو ذلك مما لا يستطيع أحد أن يستغنى عنه فى أى زمان وفى أى مكان . فهذه العناصر المذكورة نحن محتاجون جميعا الى الانتفاع بها . لكن مقدار وكيفية الانتفاع بها يتكيفان حسب الأطوار التى تتقلب فيها وتتخطاها الإنسانية .

ان شريعة الاسلام انما هى طاقة من الطاقات التى لا غنى للناس عنها مثلها مثل الطاقة الكهربائية تستدفىء بها شتاء وتبرد بها صيفا وتستغنىء بها فى الظلمات وتقرب بها المسافات وتنفع بها فى جميع ميادين الحياة . فهى طاقة لا تختص بالانتفاع بها طبقة دون طبقة أو زمان دون زمان أو مكان دون مكان . كذلك طاقة الايمان بالله الموجهة الهادية المكيفة لحياة صاحبها تكييفا خاصا يشمل جوانب حياته بغض النظر عن زمانه ومكانه ووضعه الاجتماعى وطوره الفكرى والمادى الى غير ذلك .

والاسلام اذ فتح باب الاجتهاد على مصراعيه للراسخين فى علم الشريعة المتفقهين فيها انما فعل ذلك مراعاة للقاعدة التى شرحناها والتى توجب أن تكون التشريعات مستمدة من روح الأوضاع ومتكيفة تابعة للظروف والأطوار . ولم يقتصر الشارع على فتح باب الاجتهاد فحسب بل اباح لعلماء الشريعة أن يختلفوا فى القضايا الشرعية واعتبر كلا من الفريقين المختلفين معذورا وماجورا على استنباطه واجتهاده فى تحرى الحق سواء أصاب الحق أم أخطاه « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر اجتهد » (حديث) .

ولكى ترى الى أى حد كان افق الشريعة متسعا ومراعىا للمقتضيات والظروف واختلاف الاستعدادات القطرية نسوق اليك هذا المثال من مئات الامثلة التى تركها الشارع واخط منها سبيلا سويا للامة الاسلامية كى تسلكه .

جاء فى الخبر الصحيح أنه لما انتهت حرب الاحزاب امر رسول

الله (ص) في ذلك اليوم نفسه مناديا أن ينادى في المدينة بهـ هذه العبارة : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يركز صلاة العصر الا في بنى قريظة .» — وكان وقت العصر حينذاك أضيق من أن يتسع للتأهب وحمل السلاح وإدراك الصلاة . فصلى بعضهم متخففا فذهب مسرعا وعمل بعضهم بما يقتضيه نص العبارة . وهو يعلم أن الوقت قد ينتهى قبل أن يبلغ الحى الذى قصد اليه . فلما التقى الركبان في الطريق تلاوموا وخطأ بعضهم بعضا . فلما بلغوا حيث أمروا واجتمعوا بالرسول وسألوه مستفسرين صوب الفريقين جميعا .

وهكذا فان الشارع يرى أنه ما دام القصد سليما والهدف واحدا فلا داعى لان يمنعوا من الاختلاف في الوسائل نظرا الى ما عليه البشر من التباين والاختلاف من حيث الاستعدادات الفطرية من حيث الظروف والامور . والذى يستدعى العجب في هذا المقام ويطأى الرؤوس امام سماحة هذه الشريعة أنها قد بلغت من اطلاق العنان للحرية الفكرية الى حد أنها لم تشترط شروطا معينة ابلوغ درجة الاجتهاد . اللهم الا ما كان هناك من تحريم القول في الشريعة بغير علم دون أن تقيد أو تحدد مقدار ذلك العلم فقد وكلت كل فرد من المسلمين الى ضميره الخاص وما يحمله من قوة الايمان بالله . ولقد أدى هذا التسامح العظيم الى حدوث فتوق خطيرة في الاممة الاسلامية يشق على المخلصين رتقها وذلك من جراء تطفلات الدخلاء والمفرضين المنحرفين وسماصرة الدين على التسابق في ميدان التشريع والافتاء والوعظ والارشاد والتصدر الدينى كما أدى هذا التسامح العظيم ايضا الى اتساع الفقه الاسلامى اتساعا لا نظيره في غيره من القوانين . فربما تجد في المشكلة الواحدة اكثر من عشر نظريات ولكل منها مصدرها وملحظها الخاص بها . وما ذلك الاختلاف الا نتيجة طبيعية لاختلاف ظروف واماكن واستعدادات اصحابها .

وذلك رغم ما أصاب المسلمين بعد القرون الاربعة الاولى من عقم فكرى ومن التقليد الجامد الناشئ من عدم الثقة في النفس . وبمقتضى هذا التسامح كان خلود الشريعة ومجاراتها للتطورات الطبيعية للبشر من خصائصها الذاتية ومن طبيعتها التى لا تتخلف عنها . ولا بد أن نسجل هنا نقطة لها علاقة وثيقة ببحثنا هذا . وهى ان علماء المسلمين قد اختلفوا قديما فيما اذا تعارض العقل والنقل أيهما يخضع للآخر . ويعنون بالعقل ما يعبر عنه في عصرنا هذا بكلمة العلم — فالمعتزلة على أن الشرع هو الذى يجب أن يخضع للعقل بناء على اننا ما كلفنا ولا خوطبنا الا بالعقل وحده فلا يمكن للشرع أن يخالفه ويقضى عليه لأن تكليفنا بما لا يحتمله وعينا وادراكنا تكليف بما لا يطاق . وبعض الفرق الاخرى من المسلمين على أن العقل هو الذى يجب أن يخضع للشرعية بناء على أن العقل البشرى ناقص محدود التصور والادراك ، فنظر الشارع اعلا وأضمن للنتيجة . والحق أن في هذا المقام تفصيلا لانظيل في شرحه وانما ذكرنا هذه القضية لنستدل بها على مقدار تسامح الشريعة ومقدار تعمق فلاسفة المسلمين في البحث والتنقيب الحى دون أن يخشوا الخروج من اطار هذه الشريعة السمحة الخالدة . ونرغب الى القارئ الكريم أن يجول معنا قليلا في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليرى الى أى حد كانت مجاراة الشريعة للتطور الاجتماعى ويرى مقدار الفرق الذى بين فهم الناس للشرعية يومئذ وبين فهمها لها في ايماننا هذه . ولعل الفرق بين الفهمين في البعد يعادل ما بين العصرين من الفرق في المدة . كان الناس يفهمون من الاسلام حينئذ روحه وجوهره وسره ومغزاه ثم كانوا يتدرجون مع طول الامد شيئا فشيئا من الجوهرية الى الشكلية حتى أصبحوا الان لا يفهمون من الدين الاشكلى ومظهره ولا يتصورون منه الا ظله . غير أنه لا يزال ولن يزال في العالم من يفهمه على حقيقته ويذب عنه وينفى عنه تاويل المبطلين وتحريف الغالين ما دامت السموات والارض . ولم

التقدم العلمى هو الذى سيقرب الجمهور من فهم الروح الدينية الصحيحة والمتعلق بها. (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) — (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله).

وانما أردنا أن نسوق نماذج من عهد الفاروق لأن ذلك العصر هو العصر الذى اتفق المسلمون على أنه هو العصر الذهبى بالنسبة إلى الاسلام. واذا أردنا أن نقضى بأحد في فهم أسرار الشريعة وتطبيقها فلا نجد أفضل من أبى بكر وعمر ومن أولى منهما بالاعتداء. فقد بلغ الفاروق من التمكن في فهم روح الشريعة وأسرارها ما جعله يخالف في كثير من الاحيان ظواهر النصوص مراعاة للتطور الاجتماعى الطارئ على الامة الاسلامية.

ومن ذلك اسقاطه سهم المؤلفة قلوبهم فقد رد الجماعة التى كانت تأخذ نصيبها من الزكاة من بيت المال بعد ما أخذته من الرسول ومن خلفه أبى بكر ومنه في أول عهده. رد هذه الجماعة وأسقط سهمها مع أنه مذكور في القرآن بنص صريح لا لبس فيه ولا غموض وحجته الوحيدة في ذلك هي أن الاسلام لم يعد محتاجا إلى تأليفهم كما كان محتاجا إلى ذلك يوم كان ضعيفا. ((إن الاسلام قد بزل من رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط)). فانظر كيف اعتبر عمر بمن الخطاب أن التشريع يجب أن يكون مقترنا بالتطور الاجتماعى بل نستطيع أن نقول جعل التطور قاعدة من قواعد التشريع بناء على أن المعتبر في الشريعة هو روحها وجوهرها لا مجرد شكلها وحرفيته. ولذلك كان يؤول ظواهر النصوص حسب مقتضيات الظروف والأوضاع مع المحافظة على الإطار الدينى والبعد عن مساسه بسوء. وجملة القول أن جماعة الصحابة وعلى رأسها الامام الاعظم ابن الخطاب كانوا يرون أن الدستور الاسلامى لا يخرجهم ولا يمنعهم مانع من تعديل مادة من مواده اذا اقتضت

الظروف تعديلها على أن يكون ذلك التعديل لصالح الدستور نفسه لا لفرض من الاغراض الخارجية عنه. وهذا هو ما جعلهم يعدلون الفقرة الرابعة من المادة :

(١) انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم) بحجة أن الاسلام قد بزل فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط.

(٢) وعدل مادتين من مواد قانون العقوبات فضاغف عقوبة شارب الخمر فبعد أن كانت أربعين جلدة في عهد الرسول وفي عهد أبى بكر وفي أول عهده رأى أن السكر قد فشى في المسلمين وأن العقوبة القانونية لم تعد كافية ولم تعد تؤدى الغرض المطلوب منها فاقضى نظره ونظر جماعته أن تكون العقوبة ثمانين ليحصل الغرض المطلوب من التشريع.

(٣) وأسقط عقوبة قطع اليد عن السارق في عام المجاعة مع أن المادة الواردة في ذلك عامة لا تفرق بين شخص وشخص ولا بين وضع ووضع. (والسارق والمسارقة فاقطعوا أيدهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم).

(٤) وعدل مادة من مواد قانون الحرب وذلك أنه لما وقع ما وقع بينه وبين القبيلة العربية المسيحية بنى تغلب وأعلن الحرب عليها اشترطوا عليه أن يخضعوا لحكمه على أن لا يطبق عليهم قانون الجزية ولكن يؤدون له غرامة ضعف الغرامة. المقررة الجزية على أن يعدها منهم صدقة فقبل الشرط ورفع عنهم السلاح. مع أن في هذا القبول تعديلا للمادة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون). ذلك أن عمر يرى أن هذا التعديل لا يمس جوهر القانون بل هو لصالحه. فما دامت الغرامة تؤدى والخضوع واقعا فلا فائدة من التمسك بالشكليات

والتسميات التي تؤدي الى سفك الدماء وركوب الاخطار .

٥) وعدل مادة من مواد قانون الفنائم . فاقر الامم التي فتحت بلادها عنوة على ما في ايديهم من الاملاك والعقارات وضرب عليهم غرامة عقارية سنوية تؤدي لبيت المال . مع ان القانون المتبع من قبل هو ان تقسم العقارات على الجنود الفاتحين قطعا والأشخاص عبيدا لهم ولكن الامام رأى ان المصلحة العليا للاسلام والمسلمين تقتضى تعديل هذا القانون فعده .

٦) وقد مس التعديل أيضا مواد كثيرة من قانون الارث . منها مسألة الثلث الباقي كما يسميها الفرضيون . وذلك هو ان يهلك هالك ويترك زوجا وأما وأبا فتكون المفريضة من ستة .

فبمقتضى المادة (بوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين . فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين أبأؤكم وأبنأؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما) (الآية ١٠) — فبمقتضى هذه الآية يكون للزوج النصف ثلاثة من ستة ولأمه الثلث اثنتان والباقي للاب . ولكن جماعة الصحابة رضى الله عنهم راوا ان يعدلوا هذه المادة فاعطوا للام السدس وسموه الثلث الباقي مراعاة للقاعدة الشرعية للذكر مثل حظ الانثيين . وهكذا فان الأمثلة التي أوردناها انما هي فيض من غيض وقليل من كثير . والقاعدة في ذلك كله ان الخلفاء الراشدين والجماعة الاولى من المسلمين كانوا يرون ان تطبيق القانون تطبيقا حرفيا في جميع الأحوال وبدون أى استثناء كثيرا ما يؤدي هذا التطبيق الى الخروج عن روح ذلك القانون نفسه وعن الغرض الذي وضع القانون لأجله . ولذلك سمي علم الشريعة فقها وهو لفة التعمق في الفهم والتدقيق فيه .

قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) . والغريب ان هذه التعديلات كلها وكثيرا مما لم نذكر منها حدث في مدة قصيرة لا تتجاوز اثنى عشر سنة . ولا ندري ان الخليفة الثاني مد في أجله فحكم أربعين أو خمسين سنة أخرى ماذا يحدث في الاسلام لصالح الاسلام . وبمثل ذلك التصور الواسع المدى وبمثل ذلك الفهم الصحيح للشريعة استطاع المسلمون الأولون تخليدها ونشرها في مشارق الارض ومغاربها واقناع الجماهير البشرية على اختلاف أجناسهم واللوانهم وبيئاتهم باعتمادها والخضوع لأحكامها . وأما التدين المرتكز على أداء مجموعة من الطقوس والأشكال الخالية من الروح فهو شيء لا يسمن ولا يغنى من جوع ولا يعد من التدين في شيء .

ان تمثال الانسان لا يعمل عمل الانسان وصورة الصلاة لا تترك في النفس اثر الصلاة وصورة الصوم لا تترك في النفس اثر الصوم . فالمسلم يمتاز عن غيره اذن بأمرين اثنين :

أولهما أن تملأ كيانه شحنة من الايمان بالله واليوم الآخر لا ينضب معينها تمده في استمرار بقوة دافعة له الى الاعمال الصالحة بطريقة تلقائية .

والثاني أن يتحلى بالشعور بالمسؤولية واداء الأمانة والتصيحة والاخلاص والمحبة للغير . فهذه العبارات كلها متقاربة المعانى متحدة إذ دف . والمسلم حقا هو الذى يستطيع أن يوثق علاقته بخالقه ويوثق علاقته بأخيه الانسان . ولذلك جاء في الحديث الصحيح (الدين النصيحة) هكذا بالحصص .

وهذه الأسس العظمى التي ذكرناها هي التي تعوز أكثر التدينين في عصرنا هذا فاستبدلوا بالتمسك ببعض القشور التي قد لا تتصل بالدين في شيء وقد تكون لها صلة به ولكنها واهية أو هن من

بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ذلك لأنهم يأخذون هذا الدين ويتأثرون به عن طريق الوراثة والتقليد لاعن طريق التفقه والتدبر والمقارنة والانتفاع .

وليس معنى ما ذكرناه أننا نقلل ونضعف من قيمة تادية الواجبات والابتعاد عن المحرمات كلا . إنما الذى ننكره ونأسف منه هو ما نراه فى كثير من المسلمين من توجيه كل عنايتهم الى التربية العملية من الناحية السطحية دون أن يبذلوا جهدا فى تربية العقيدة الدينية وإذكائها وترسيخها فى النفوس لانا نرى أن العمل الذى ينبثق عن مجرد التقليد والتأثر بالبيئة أو عن الظهور بمظهر المتدين الورع لا يؤدى ثمرة العمل الذى ينشأ عن متانة العقيدة وخالص الإيمان . ومن حرص على تادية الفرع وأهمل الأصل ضاعا عنه جميعا . لذلك كان القرآن يوجه جل عنايته الى تكوين العقيدة وتغذية النفوس بها فنشأت الطائفة الاولى من المسلمين موجهة بمقتضى تلك العقيدة القوية الفياضة فكان فهمهم للدين أصح وتصورهم له أوضح وتأثرهم به أعمق .

ولقد رأينا أن نتعرض لشرح شئ من المشاكل الاجتماعية التى اضيفت عليها صبغة دينية فكانت المعركة تدور حولها بين المحافظين والتقدميين مما جعل الكثير يظنون أن الدين عائق عن التمدن وأنهما ضدان لا يجتمعان وأن الاستمسك بأحدهما يستلزم تضييع الآخر . نريد أن نشرحها محاولة منا لازالة ذلك المظن وتبيين خطئه .

إننا نشاهد الان فى بعض البلاد الاسلامية معركة حادة طويلة المدى مثيرة لكثير من التنافر والمعداء حول جواز ازالة شعر اللحية أو الأخذ منه وعدم جواز ذلك . ومدار المعركة كله على الحديث الصحيح الوارد فى المقام : قصوا الشارب واعفوا اللحاء . فىرى قوم أن فى حلقها مخالفة لامر الرسول ومعصية له وفسوقا عن الدين زيادة على أن حلق اللحية يمثل التخثنت ويمثل التشبـه

بالكفار وكل ذلك منهى عنه شرعيا . ويرون أن السكوت عن هذه الجريمة وقبول انتشارها جريمة أخرى لا تغتفر . فالواجب الشرعى يقضى باعلان الحرب عنها وتشجيعها امثالاً لواجب القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويرى آخرون أن تنقية الوجه من الشعر أصبح من مقتضيات الحياة الحاضرة لأن ذلك من دواعى النظافة والجمال فهو يدل على رفعة الذوق وسلامته وأن تشيين الوجه بذلك الشعر من أدلة التخلف أو الرضى بالمهانة والقذارة . أضف الى ذلك أنه يكون مثارا للسخرية والازدراء . فالدين إذ يأمر بذلك يكون مناقضا لدواعى التمدن ومنافيا لاسباب الحياة المثلى فهو يطالبنا بما لاحكمة فيه ولا معنى الا ما كان من الجمود والتقهقر الى الوراء فهو اذن ، غير صالح لنا فى عصرنا هذا .

واقوم هذين الفريقين طريقا من يرون أن الامر باعفاء اللحية ليس من الأهمية بهذه المثابة اذ لم يرد فى ذلك نص قطعى أو آية قرآنية صريحة . ولم يتوعد الشارع مخالف هذا الأمر بعقاب فى الآخرة أو حدا فى الدنيا . فالامر اذن قد لا يفيد الوجوب والحتمية . وإنما يفيد الندب والسنة . تلك هى مجمل النظريات التى يدور حولها الصراع بين المحافظين وغيرهم ونحن اذا نظرنا الى القضية من وجهة فلسفتها الشرعية وجدنا أن الامر باعفاء اللحية لا يخلو من أحد وجهين : فاما أن يكون مبنيا على أساس اكتساب المسلم شخصية خاصة وعلى أساس بناء تلك الشخصية وتقويتها وتحسينها بحيث يكون المسلم ممتازا بشكله وهيأته كما يكون ممتازا بروحه وأخلاقه . على أن هذا الوجه ضعيف من حيث أن كثيرا من الشعوب الغير المسلمين يومئذ كانت عاداتهم الاعفاء . فعلة التمييز اذن غير قوية .

وأما أن يكون الامر بالاعفاء مبنيا على أساس الاستحسان الصرف بمعنى أن الرسول (ص) كان ناشئا فى شعب متعود توفير اللحاء

مطبوعا على ذلك عن طريق الالف والموراة . فلما رأى الرسول
الفرس يحلقون اللحاء ويوفرون الثارب استهجن منهم ذلك
لعدم تعوده النظر الى مثل تلك الهيات . ولأن توفير اللحية في نظر
العرب يزيد من هبة الرجل ومن تشخيص رجولته . لذلك كله
أمر باعفائها استحسانا منه لتلك العادة المألوفة . فالأمر أذن متعلق
بالآداب الشكلية والمنافع الدنيوية . وما كان من هذا الباب لم يفد
الوجوب فهو مثل قوله عليه الصلاة والسلام « لا تعبوا الماء عباً
ولكن مصوه مصاً » ونهيه عن الشرب قائماً . وقوله لبعض أصحابه
مرشداً له الى أدب الأكل « كل مما يليك » . وقوله « عليكم بالثياب
البيضاء البسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » الى غير ذلك من ثبات
الأحاديث التي تفيد التأديب والارشاد والتي لا علاقة لها بصميم أمر
الرسالة وبتفسيق المخالف لها .

ونحن نعلم أن أقوال الرسول على قسمين منها ما يصدر عن وحى
من الله ومنها ما يصدر عنه بصفته مرشداً وزعيماً . لهذا كان
يعاتبه القرآن إذا صدر منه ما يخالف مقصداً من مقاصد الشارع .

والأمر بالاعفاء وإن كان لا يخالف مقصداً من مقاصد الشارع
فالظنون أنه لا يندرج تحت غرض من أغراضها وكل ما يوجب المقام
ويقتضيه الانصاف والاحترام هو أن نقول : إن الاعفاء أفضل من
الحلق وأنه سنة مأجور عليها . أما أن نقول بتفسيق من خالف الأمر
وأدراج في زمرة الخصوم والاعداء فهذا مما لا دليل عليه ولا برهان .

نعم لقد كان الرسول (ص) كثيراً ما ينهى عن تشبه المسلمين
بخصومهم وأعدائهم في الدين . وسر هذا النهي هو أنه يريد أن يربى
أمة على الاعتزاز بالنفس والاعتزاز بالبدا وأن تكون لها خطة
معينة في هذه الحياة تتبعها عن وعى وإدراك وعن مقارنة واختيار
ثم تدافع عنها الى النهاية . يريد الرسول من المسلمين أن لا يكونوا
عديمي الشخصية أتباعاً لكل ناعق بل يتحتم عليهم أن يكونوا مفرغى

الرأس شاعرين بسمو ما معهم من الحق والعدل وبكونهم خلفاء
الله في أرضه . وما كان يعبر عنه حينئذ بالتشبه هو الذي يعبر عنه
في عهدنا بالتبعية والاحتلال الفكري الى غير ذلك من العبارات .

وما آل المسلمون الى ما كانوا عليه من التخلف والتفكك والانحلال
الابعد أن أصيبوا بمرض فقدان الشخصية والاحتلال الفكري . وهذا
المرض هو الذي كان يخشاه الرسول من المسلمين وينهاهم عنه
ويلفت نظرهم اليه بنهيهم عن التشبه . فالواجب الأول على المسلمين
أذن هو أن يجتثوا هذه الجرثومة من أصلها ويربوا الناشئة على
الشعور بالعزة الاسلامية والكرامة الاسلامية ليسهل عليهم بعد
ذلك الامتثال للأوامر التي تنبعث عن هذا الشعور وتفذه . أما
إعلان الحرب عن مخالفي تلك الأوامر قبل أن تربى فيهم بذورها
والعناصر المعدة لها فلا يغنى شيئاً بل هو الى الهدم أقرب منه الى
البناء .

وأغرب من هذه القضية التي شرحناها ما بلغنا من صدور كتاب
في هذه السنة بالذات في بلاد الحجاز موضوعه : تحريم سماع الفناء
والموسيقى .

وليت شعري كيف ينتشر الاسلام في الأرض أو كيف يتمكن من
الاخذ بزمام الناشئة إذا ربي فيهم الاعتقاد بأن سماع الموسيقى
والفناء معناه الفسوق عن الدين والخروج عن إطار الشريعة
الاسلامية .

فلا بد من الأستاذ محمد عبده ما صدقه إذ قال : « الاسلام محجوب
بالمسلمين » . وقبل أن نستعرض موقف الشريعة من السماع للفناء
ومن الفنون الجميلة كلها رأينا أن نسجل بعض ملاحظات حول
بعض الأخطاء التي يرتكبها كثير ممن تؤول اليهم مناصب الصدرة
الدينية يرتكبونها عن قصد أو عن غير قصد والتي تؤدي الى التفريق

عن الدين واضعاف قيمته في النفوس وبالتالي الى الاعتقاد بأن الدين مناف لتطور الحياة البشرية .

أولاً — الاعتماد في التوجيه الديني على الاحاديث والآثار الواردة مع اغفال الملاحظة الواجبة في هذا المقام . وهى التأكد من مبلغ صحتها وصلاحياتها للاحتجاج . فالوجه قد لا يراعى في توجيهه الا ما يؤكد النظرية التى يشرحها ويتحمس لها دون أن يعبر اهتماما كبيرا لجانب صلاحية ما يعتمد عليه من الآثار والاحاديث للاحتجاج . هذا مع العلم بأن الحديث مهما بلغت قوة سنده وتعدد طرقه لا يتعدى درجة الظن . وقليل جدا عدد الاحاديث التى تبلغ درجة الظن بصحتها ٩٠ ٪ وذلك بعوامل كثيرة من أهمها تأخر الاعتناء بتقيد الحديث وتسجيله بعد عهد الرسول بمدة قرن ونصف تقريبا .

ثانياً — الاعتماد على مجرد جزئيات الشريعة دون الرجوع بها وربطها بكيئتها وبعبارة اوضح الاعتماد على الحفظ والنقل دون التفقه والتحليل ورد كل حكم الى فلسفته الشرعية .

مع العلم بأن الشريعة كآلة معقدة مركبة من قطع متعددة ومواد مختلفة . فامتلاك عدد من قطع تلك الآلة مفرقة لا يمكن من الانتفاع بالآلة ككل متكامل الاجزاء ولا يمكن من الانتاج بها . كما أن امتلاك الآلة كلها مع الجهل بكيفية استعمالها وتحليلها وتركيبها لا يغنى مالكا شيئا . فاتقانه لاستعمال كل من قطعها على الوجه المطلوب هو الذى يمكنه من استثمارها . وكذلك الشريعة يجب أن تعتبر نصوصها كاجزاء من كل متكامل ولا يجوز اعتبار كل نص من تلك النصوص كلا على حده . وكثير من الموجهين يلتقطون آيات وأحاديث من هنا وهناك فيستعملونها في غير ما وضعت له ظنا منهم أن كل نص مستقل عن النصوص الأخرى ومكتف بنفسه في اثبات الحكم الذى يحمله ذلك النص .

ثالثاً — اعتقاد الموجه أن حقيقة الشرع هى ما طبعته في نفسه صورة ثقافته ووضعه واستعداداته الخاصة مع أن الحقيقة الشرعية قد لا تكون هى عين ما أتصوره أنا أو ما تتصوره أنت . لأن فهم النصوص الشرعية يتكيف حسب الظروف والاوضاع والبيئات كما أسلفنا من قبل . لهذا كان عقاب الله وثوابه يصدران حسب ما تقتضيه أفعالنا واستعداداتنا المختلفة . لا حسب ما تقتضيه الحقيقة عند الله تعالى . ومن لم يعتقد هذا سهل عليه تخطئة غيره ورميه بالفسوق فينصب له العداء ويحمل ضده الضغائن والاحقاد فيقع بذلك التنارع بين المسلمين ففسلهم فذهاب ربحهم . ومن هذا النوع اختلافهم في موقف الشريعة من الفنون الجميلة كالموسيقى والفناء والرقص والتصوير .

ولقد ثارت بسبب استعمال الموسيقى والفناء ضجة صاخبة بين علماء المسلمين ! وصراع عنيف طويل المدى حتى ألفت في المسألة كتب ورسائل عديدة واسند كل من الفريقين : فريق الإباحة وفريق التحريم أحاديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤيد بها دعواه واعتصر كل منهما آيات من كتاب الله يستنبط منها المادة التى تؤيده .

والحق أن مرد اختلافهم في هذه القضية يرجع معظمه الى عوامل ومؤثرات أخرى نفسية واجتماعية . فالعالم الذى يرى تحريم استعمال الملامى قد يكون من دواعى تحريمه لها كونه سلبى الطبع فردى النزعة يميل الى الفلسفة والجد ضعيف العاطفة بطيئ الاحساس أو ناشئا في بياة تقوده وتتحكم فيها تلك العوامل والنزعات وهذا الذى تتحكم فيه تلك العوامل لابد من أن يفهم أن الدين مناف لما تقتضيه تلك العوامل التى لها الاثر الكبير في توجيهه وتكييف تفكيره وطريقة حياته . وقد يكون من دواعى تحريم بعض العلماء للموسيقى والفناء نشأتهم في مجتمع مسرف احاطت به

والنزاهة والاعتدال . وقد وردت احاديث كثيرة تثبت ما ذكرناه .
 واما التصوير فقد صرح نهى الشارع عنه لما كان له حينئذ من علاقة
 قوية بالعبادة والتقديس . فقد كانوا يعبدون التماثيل التى ينحتونها
 فأراد الشارع أن يبعدهم عن هذه العقيدة ويجتث كل ما يثيرها في
 نفوسهم . فحيث أن هذه العلة قد زالت فلا محل لبقاء المثل .
 والتصوير الذى لا علاقة له بالعقيدة والذى يتم مجرد ابراز البراعة
 الفنية لا محل لنهى الشارع عنه لأن الله تعالى انما خلق الانسان لنتم
 على يديه المعجزات ولتتحقق خلافته في الارض .

والتنافس والتسابق في ميادين الفن والجمال مما يثبت قدرته
 واستحقاقه للخلافة الذين يدلان على عظمة خالقي هذا الانسان
 وقدرته اللانهائية . ولسنا في معرض تفصيل المسائل الفقهية
 وتحليلها انما نريد أن نبين كيف ان الشريعة لا تتناقض مع التطور
 الاجتماعى بل تنسجم معه كل الانسجام في جميع الميادين . وهنا
 نؤكد مرة أخرى أن اقطع برهان على قابلية الاسلام للتطور وعلى
 كونه طوريا بالطبع أن اذن الشارع لعلماء الشريعة والمتفقهين فيها
 أن يستعملوا الراى ويجهدوا عندما تطرأ عليهم قضية من
 القضايا التى لها علاقة بالتشريع ولم يجدوا نصا قطعيا من الكتاب
 أو السنة قد قال كلمته النهائية فيها . شريطة أن يكون ذلك
 الاجتهاد داخل الاطار الذى حدده الكتاب والسنة . لذلك ترك هؤلاء
 المجتهدون لنا ثروة قانونية واسعة فياضة لا ينضب معينها .

والفقه الاسلامى قد اكتسب من النضوج والخبرة التطبيقية
 في تلك القرون الخمسة الاولى ما ضمن له الخلود والبقاء . فقد
 انتشر المجتهدون في مشارق الأرض ومغاربها وفي مختلف البيئات
 على تباین نزعاتها وأوضاعها واختلطت المدنيات وتطورت العلوم
 والنظريات وتم كثير من الاختراعات ولم يصطدم الاسلام بشيء من ذلك
 قط بل احتضن ذلك كله ووسع البشرية الموجودة حينئذ على اختلاف

السفاهة واغثاته نشوة الخمر والملاهى والقيان فانحرف عن
 سواء السبيل وكان يتردى ويقترب شيئا فشيئا من نهايته فاذا رأى
 أولئك العلماء أن أهم الاسباب التى أدت الى ذلك هو الانجذاب
 والاعتكاف على المطربات وقارنوا ذلك بما يأمر به الدين من الجد
 والعمل أخذتهم الفيرة الدينية واستولى عليهم الشعور بوجوب
 الدفاع عنه فحرموا استعمالهما بناء على ما بدا لهم من أنهما من
 عوامل الاطاحة بالامم والشعوب . ومن المستحيل أن يعدم هذا
 الفريق أو ذاك الفريق من العلماء ما يستند اليه في دعواه من
 النصوص النقلية خصوصا وان كثيرا من العلماء كانوا يرون أن
 الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة في مقام الترغيب والترهيب جائز
 لما في ذلك من تمكين الروح الدينية في النفوس . وهذه النظرية قد
 أدت بدورها الى وضع كثير من الاحاديث ونسبتها الى الرسول
 زورا وبهتانا . ولا يختلف العلماء في أن جل ما ورد من نصوص تحريم
 السماع ضعيف أو موضوع بل قال بعض النقاد من القدماء انه لم
 يصح في الباب شيء مطلقا . لهذا نرى عددا كبيرا من الصحابة
 والتابعين ومن بعدهم يجيزون استعمال الموسيقى والفناء وقد
 يقع ذلك بمحضهم ومشاهدتهم فيقرونه كعبد الله بن جعفر وعبد
 الله بن الزبير والامام مالك وابن حزم الظاهري وغيرهم ممن لا
 يحصى عددهم .

واذا نظرنا الى القضية من وجهتها الفقهية الصحيحة وجدنا أن
 السماع لا يستتراب لذاته واذا كان من الجائز أن تحوم حوله ريبة
 فلاثارته للفرية وتحريكه للشهوة . فاذا تجرد من ذلك فهو لا يعدوا
 كونه من الطيبات التى أحلت لنا لان الله تعالى لا يحرم شيئا لمجرد
 اثارته البهجة والسرور في النفوس انما يحرم الفواحش ما ظهر
 منها وما بطن وينهى على سبيل الاحتياط عما يؤدى الى الفواحش .
 فالشارع اذن لا يعوق الانسان عن استعمال حاسته الفنية التى لها
 علاقة متينة بتقويم سلوكه وتربية أخلاقه انما يشترط في ذلك البراعة

اعصارها وأمصارها ولم يضق بها ولاصاقت به ولم يتوقف لحظة واحدة عن التمكن والانتشار رغم ما أصاب أهله من التنازع السياسى وغير السياسى الذى ينخر كيانهم .

لقد انقسم رواده ومثلوله وحاملوا رايته ما بين متحرج محافظ واقف على حرفية النصوص التى وثق بها وبين معتدل النزعة يجمع بين المنقول والمعقول وظواهر النصوص واستعمال الرأى وبين متحرر الى الحد الأقصى يفهم الشريعة وينظر اليها نظرة تفهيمية تحليلية ينظر اليها من خلال قواعدها الكلية ومقاصدها العليا . والمستفيد بذلك كله انما هو جمهور المسلمين . هذا وقد كان كل واحد من هؤلاء يعترف بصواب الآخر وبحقيقته فى التشريع والافتاء ولا يخطئ بعضهم بعضا الا ما كان من أتباعهم الراسيين المقلدين . ذلك ما كان عليه الاسلام فى القرون الاولى . كان منسجما مع واقع الحياة بل كان ايجابيا وقائدا وموجها له فخلق من بعدهم خلف أضعوا الاسلام واتبعوا الشهوات فتحجرت أفكارهم فأخذوا يحاولون وهم يدعون تمثيل الاسلام أن يربطوا عجلة القرون العشرين بالقرن العاشر مباشرة فأخذوا يهدمون الاسلام من حيث يظنون أنهم يشيدونه حتى أصبحت كلمة التدين مرادفة عند الجمهور لكلمة التخلف . على حين يجب أن تكون كلمة التدين مرادفة لكلمة التمدن . وهذا هو ما كان مفهوما عند أهل القرون الخمسة الاولى . وتخلف العالم الاسلامى فى الميدان الدينى متصل بتخلفه فى جميع الميادين .

أما طبيعة الشريعة فهى متفاعلة مع طبيعة الحياة الى آخر الحياة غير أن الأمة الشرقية لما تدهورت سياسيا واجتماعيا وأصبحت عاجزة عن حل مشاكلها والقيام بواجباتها وكان بعضها يصطدم ببعض فى استمرار نبتت فيها نتيجة لذلك ورسخت عقيدة وخيمة العواقب لم نزل نقاسى آثارها المرة الى الآن . وهذه العقيدة هى أن

الدين والدنيا متناقضان فلا بد للانسان من اختيار أحدهما اذ لا يمكن الجمع بينهما فكان أسعد الناس عندهم وأرفعهم منزلة من نفى يده عن أمور المجتمع واستدبر الدنيا وأعرض عنها بوجهه واشتغل بخاصة نفسه منقطعا الى الصلاة والصوم والتسبيح وعبادة الله . هذه العقيدة التى رسخت فى الأجيال السابقة هى التى مهدت الطريق لتمكن الاستعمار بأنواعه وأشكاله كلها وحفرت هوة سحيقة واسعة بين الروح الدينية وبين واقع الحياة لأن المفهوم الدينى بذلك قد اتخذ شكلا جديدا عند الجمهور وأصبح ممثلو تلك الشريعة المسماة من أخص خصائصهم السلبية والجمود . وأصبحوا بمعزل عن التوجيه المباشر للنشاط الحيوى وكان قصارى جهدهم الدفاع عن الاحتفاظ بمكانتهم الروحية التى أولاهم إياها الجمهور .

على أنه من الحق أن نقول بأن الروح الدينية الصحيحة لم تخب تماما من الجمهور ولا من بعض الممثلين الدينين وانما تضاعفت واختفت وأخذت تعمل من وراء الحجاب وبطريق غير مباشر بدلا من أن تعمل سافرة وبطريق مباشر .

وفى نظرنا أن الطاقة الدينية لها أثر كبير فى تحريك هذه النهضة الجديدة التى نشاهدها ولنا أمل كبير فى أن هذه الطاقة ستسترد وجودها شيئا فشيئا حتى تعود الى ما كانت عليه من التوجيه والتأثير المباشرين .

وانما ذكرنا ذلك التحليل الذى تقدم لتوضح أن تخلف المسلمين لم يكن ناشئا عن طبيعة دينهم بل كان نتيجة انحرافهم عن طبيعة هذا الدين المسبح القابل للتطور والانسجام .

ونحن لا نذهب بعيدا بل يكفينا أن نشاهد فى عصرنا هذا من يدعى أن التأمين الاجتماعى مناف للاسلام بدعوى أنه من القمار وأن نظام المنح العائلية مناف للاسلام بدعوى أنه غصب للاموال وأن تنقيف المرأة مناف للاسلام بدعوى أنه يؤدى الى الفساد الخلقى والاجتماعى

وأن الاشتراكية تنافي الإسلام لأنها تفقر لمن كتب الله له الغنى وأن استعمال البنوك مناف للإسلام بدعوى أنه من الربى وأن الحكم بالقوانين المدنية مناف للإسلام لأنها مستمدة من غير الإسلام وبعبارة أخرى أن الإسلام مناقض تماما لمبادئ الحياة الحاضرة ونظمها كلها بمعنى أن الإسلام أصبح غير ملائم للحياة العصرية . وفي هذه النقطة يلتقى المحافظون السليبيون من المسلمين بأعداء الإسلام من الملاحدة المركزين جهودهم وامكانياتهم الفكرية في محاربة هذا الدين وهدمه .

ولما كانت قضية استخدام البنوك والحكم بالقوانين المدنية من أهم المشاكل التي تشغل فكر الجماهير الإسلامية وتقاق بالها وتبعثها على الاعتقاد بأن الإسلام عائق كبير عن التطور الاجتماعى رأينا أن نستعرض نظرا فيهما بإيجاز مستمدين من الله التوفيق والسداد .

وبدئنا أن الربى محرم فى دين الإسلام بنصوص قطعية لا يتطرق إليها الشك لكن قضيتنا تنحصر فى الأسئلة التالية : هل النظام المصرفى الذى تتبعه الحضارة الحديثة هو عين النظام الذى كان مفهوما ومتبعاً عند العرب يوم نزول القرآن ومعنى أصالة الآية الكريمة التى نزلت فى تحريم الربى . . . ؟ أم هو مندرج فيه بصورة من الصور التى يحتملها مفهوم العرب ومفهوم النص القرآنى فى الربى . . . ؟ أم المفهوم لكلمة الربى والنظامان المتبعان القديم والحديث متغايران لا صلة لأحدهما بالآخر . . . ؟

فالفرض الأول يقتضى تحريم الصورتين معا والفرض الثانى يقتضى أن تكون الصورة الجارية فى نظام حضارتنا الحديثة يحتمل أن يشملها التحريم ويحتمل أن لا يشملها فتبقى على إباحتها الأصلية والفرض الثالث يقتضى عدم تحريم الصورة الجارية للنظام المصرفى الحاضر مطلقا . ونحن إذا استندنا إلى ما رواه المؤرخون والمفسرون كابن جرير الطبرى عن مفهوم الربى عند العرب يومئذ والنظام

المتبع بينهم نجد الفرق كبيرا بين ذلك وبين صورة نظام المصارف الجارى به العمل فى عهدنا هذا . ففى النظام المالى عند العرب فى العهد القديم كان الدين يقتضى المال من الدائن على أن يرد عند الأجل المضروب مثل ما أخذ بدون زيادة ولا نقصان لكن إذا حل الأجل وعجز الدين عن قضاء الدين وذهب ليعتذر عند الدائن قال له الدائن اذاك مستغلا لعجزه :

((اما أن تقضى واما أن تبرى)) « هذا ما يفهم من مجمل الروايات التى روتها أمهات كتب التفسير .

والنظام المصرفى الحديث بعيد عن استعمال مثل هذه الصورة لكن حيث أن هذا النظام الحاضر يحتمل أن يكون مندرجا فى مفهوم آية الربى وصورة من صور الربى المعنى بالتحريم فالحكم بتحريمه يكون ظنيا ومحتملا . وما كان من قبيل ذلك فلا يجوز تفسيره المخالف فيه . والربى إنما حرم لأن فيه استغلال الأقوياء لأزمات الضعفاء ولأن فيه تحويل الذهب عن مجراه الطبيعى . فان الربى يجعله غاية لذاته وأداة للربح المباشر على حين أنه وضع ليكون وسيلة للتعامل بين الناس وجعله غاية لذاته يقلل من وسيلته ويؤدى إلى الفائتها تدريجيا وذلك يؤدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى والاجتماعى وحيث أن هذه العلة موجودة فى النظام المصرفى الحاضر كان احتمال اندراج هذه الصورة فى مفهوم آية الربى قويا غير أن النظام الجارى به العمل الآن كان أقل خطرا وأحكم قاعدة وأدنى إلى مراعاة مصلحة الفقير . فلهذا الفرق يسرغ أن نقول بأن تجنبه كان أحوط وأبعد عن الزيبة وقبوله واتباعه لا يبلغ بصاحبه أن يكون مشهورا عليه الحرب من الله ورسوله ومتوعدا بالخلود فى النار .

ولنا أن ننظر إلى القضية من وجه آخر ذلك أن أئمة المسلمين اتفقوا على أن الضرورات تبيح المحظورات وحيث أن النظام

منها .

العالمى للمال والاقتصاد قد انفلت من ايدى المسلمين ولم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون ان يخطوا نظاما خاصا مستقلا بنفسه او يستغنوا عن ذلك النظام الجارى فمن الجائز لهم شرعا ان يخضعوا لحكم الضرورة ما لم يجدوا مخرجا عنها . هذا اذا تقرر عند الامة الاسلامية ان استخدام المصارف قد اصبح ضرورة اجتماعية لا مناص

فان الاسلام اعلى وارفع من ان يرغم اهله على الاستسلام للاجوع والعبودية والفناء تحت الضربات الاقتصادية للعدو بل محاربة هذه الامور من الاغراض الاساسية للاسلام . واذا ابيح شرعا للمسلم ان ياكل الميتة والدم عندما يضطر لانقاذ روحه افلا يجوز او يجب على الامة الاسلامية ان تنقذ نفسها من الخطر الذى تراه يقترب من ابتلاعها (١) ؟

ما ابعد عن الاسلام من يدعى ان الاسلام فيه ما يعوق اهله عن مسامرة ركب الحياة ويدفعهم الى الوراء . واما الحكم بالقوانين الوضعية فهي نتيجة طبيعية لما كان عليه العالم الاسلامى من التخلف الثقافى ومن تاثره بثقافة المستعمر وتوجيهه وتقييده بالقيود الاستعمارية الثقيلة مدة طويلة من الزمن . وليس من الممكن لامة من الأمم أن تتحرر سياسيا واقتصاديا وثقافيا في ظرف سنة واحدة أو جيل واحد وطبيعى أن التحرر السياسى سيكون من انجع الوسائل وأهمها للتحرر الاقتصادى والثقافى . وامة تستمد ثقافتها وخبرتها الاقتصادية من دولة اجنبية لم يتم استقلالها بعد لان الاستقلال السياسى إنما هو مرحلة من مراحل الاستقلال التام .

(١) نقول هنا بقطع النظر عن ثبوت الحجية بالاجماع والقياس أو عن عدم ثبوتها لأن من أثبت الحجية بهما مستند قطعا في اثباتها الى الأصلين المذكورين .

هذا مع العلم بأن القوانين المدنية الحديثة لا تختلف في معظمها عما تحتوى عليه الشريعة الاسلامية من التشريعات . وقليل تلك المواد التى نجد تناقضا وتناقرا بينها وبين نصوص الشريعة وروحها لان تلك القوانين متأثرة الى حد كبير بالتشريعات السماوية الثلاث ولأن الفرض الأساسى من التشريع كله يرمى الى هدف واحد وهو رعاية المصلحة ودفع المضرة .

والى أن تستعيد الثقافة الاسلامية قوتها وسلطانها يجب علينا المحافظة على البذور الدينية الحية التى تحتوى عليها جماهير شعوبنا حتى اذا سنحت لتلك البذور الفرصة أورقت ونمت واستوت على سوقها .

وبشائر سنوح هذه الفرصة قد أخذت تلوح في الافق بحمد الله من الآن . فقد أخذ تائثرا بالثقافة الاجنبية وتقديسنا لها يخف تدريجيا كما أخذت الهيئات الدينية من جهتها تخرج من اجار سلبيتها وجمودها وبدأت تحتك وتتصل بواقع الحياة . ونتيجة لذلك كله أخذنا نشاهد نشوء الجامعات الاسلامية هنا وهناك ونشاهد تطورا عميقا في مناهج المعاهد الدينية وتسيير برامجها .

الفصل الثامن

الاسلام والتطورات العالمية من الوجهة العلمية

لا أتحدث في هذا الفصل عن ما قدمته الحضارة الاسلامية للبشر من اكتشافات باهرة وعن مقدار دفعها للعالم الى الامام مسافات شاسعة في جميع الميادين العلمية .

فقد أسست بتجاربيها المثمرة قواعد وأصولا ثابتة في علم الطب والهندسة والكيمياء والجبر والموسيقى وفي علم البصريات والفلسفة وغير ذلك .

ولا أتحدث عن ما نقلته الينا تلك الحضارة من علوم القدماء وحضاراتهم فترجمته وحافظت عليه وأهدته لنا محفوظا من الضياع . انما أتحدث عن نقطتين هامتين في نظري :

أولا — العلاقة الرابطة بين الاسلام النقي الخالي من كل ما ران عليه من رواسب الافكار البشرية التقليدية المستمدة من ظروف الزمان والمكان وبين القواعد العلمية الحديثة التي قامت المشاعير والاحساسات قلبا جذريا وقلبت الأوضاع الاجتماعية كلها رأسا على عقب .

ثانيا — العلاقة الرابطة بين هذه القواعد العلمية وبين ما جاء به الاسلام من الزامنا أن نؤمن بالغيبات التي لا نستطيع أن ندركها ولا يمكن أن تدخل في اطار مشاهدتنا .

وتبلى أن نفصل القول بعض التفصيل يجب أن ننبه على أن كل ما سنورده في هذا الباب يرتكز على قاعدة أساسية وهي أنه ليس

كل ما نسب الى الله ورسوله فقد قاله الله ورسوله حقا . كما أنه ليس كل ما قاله ونشره عالم من علماء الطبيعة أو الفلك أو الفلسفة مثلا نستطيع أن نطبق عليه كلمة العلم .

فالتصوص التي تنسب الى الشريعة لا نستطيع أن نطبق عليها كلمة الشرع ونأخذها جزءا من ديننا الا اذا ثبتت بطريقة قطعية المتين قطعية الدلالة . بمعنى أنها لا تقبل الشك ولا تحتل التأويل (١) . والنظريات والفروض التي يتوصل اليها العلماء بطريقة ظنية لا يمكن أن نسميها علما ما لم تكن حقائق ثابتة بطريقة قطعية لا تقبل النقض مهما تطاولت الدهور وارتقت العقول .

ومن أجل عدم مراعاة هذه القاعدة المذكورة يستفحل الخطأ ويعتقد الكثيرون أن هناك تناقضا فاحشا بين العلم والدين وتقع أجيال كاملة في ظلال بعيد . ومن هنا يقع التنافر الشديد بين المنتسبين للعلم وبين المنتسبين للاديان السماوية . وتتمكن العقد النفسية في كل من الفريقين ازاء الآخر خصوصا وأن أكثر المتدينين ينقصهم الفهم الحقيقي والتصور الصحيح لتلك الاديان التي يعتنقونها لأن اعتناقهم لها غالبا ما ينشأ عن التقليد لا عن الاقتناع الصحيح .

كما أن أكثر المنتسبين للعلوم المادية كثيرا ما ينقصهم الدقة والتحديد بين ما كان نظرية من النظريات التي لا تزال غير مستقرة ولا تزال قابلة للنقض والتعديل وبين ما كان حقيقة علمية لا يمكن أن يطرأ عليها نقض أو تعديل مادامت الارض والسماوات .

❖ وما أقل هذه الحقائق وما أعزها ❖

(١) وبديهي أننا ملزمون شرعيا بالعمل بالنصوص الشرعية الظنية والتي لم تبلغ درجة القطع الا ان ذلك انما يكون في الميدان العملي ، لا في الميدان العلمي والعقائدي .

ومما لا شك فيه أن العلوم المادية كلها تتبع من مصدرين أساسيين
لا ثالث لهما . وهما التجربة والمشاهدة . كما أن الشريعة
الإسلامية إنما تتبع من مصدرين اثنين فقط هما : الكتاب والسنة .

أما القرآن فلا نجد فيه آية واحدة تتعارض في معناها مع حقيقة
من الحقائق التي توصل إليها العلماء بطريقة يقينية وبشكل نهائي لا
يقبل التعديل . وإن كنا نجد فيه كثيرا من الآيات متشابهات لم يتضح
معناها تماما .

وأما الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقد نجد فيه كثيرا من النصوص المتعارضة مع تلك الحقائق العلمية .
ولا يعسر على القارئ أن يكتشف الأسباب الحقيقية لذلك
التعارض . ذلك لأن الناس في القرون الأولى قد استضاعوا أن
ينسبوا إلى رسول الله (صلم) ما لم يستطيعوا أن يفسروه إلى
القرآن فكانوا يتوسلون باسم الرسول ويستغلونه لخدمة
أغراضهم الشخصية ونزعاتهم الحزبية واحتلالهم للمناصب النعيا
والصدارة الدينية والدينية .

فإن منهم الدخلاء في الإسلام والطاعنين في الدين الحاقدين عليه
ومنهم المنتقمون لتراثهم القوي المنهار وأما جدهم السالفة التي
ينسوا من استرجاعها .

وقليل أولئك الطاهرون المتقون الذين لا يحدهم في رواية الحديث
إلا الصدق الخالص وأداء الأمانة على الوجه المطالب . وأصدق
مثال على ما تقدم أنك تجد كثيرا من الأحاديث تفضل بلاد الشام على
غيرها وأخرى تفضل بلاد اليمن وأخرى تخص المغرب بفضائل
ومزايا خاصة وأحاديث ترفع الفرس وأخرى ترفع العرب إلى غير
ذلك مما يحمل النزعات الحزبية والطائفية .

ومن هذا القبيل تلك الأحاديث التي كانت تعد المسلمين وتمنيهم

بظهور الفاطمي « محمد المهدي » الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما
ملئت ظلما وجورا .

ومن ثم كانوا كثيرا ما يسندون إلى الرسول أقاويل تتعارض
تماما مع الحقائق العلمية وسنن الله الكونية التي لا تتبدل بل
تتعارض حتى مع النصوص القرآنية نفسها . وكثيرا ما ينسبون
إليه أيضا أحاديث وردت في الأساطير القديمة . وقد يكون ذلك عن
جهل وسذاجة وقد يكون عن عمد كما تقدم .

ومن ذلك ما روى عنه في أحاديث تفصل كيفية خروج ياجوج وما
جوج وتتحدث عن أراضهم وأنواعهم وأشكالهم وعن أفسادهم في
الأرض وأكلهم للرزاق وشربهم ماء البحار كما روى عنه كثير من
الأحاديث تتعلق بخروج المسيح الدجال وأيامه وطوافه بالأرض
وسلبه للأموال .

ولا يمكن لنا أن نملا بتلك الأحاديث هذا الكتاب الذي لم يوضع
لهذا الغرض . إنما نريد أن نشير إشارة قصيرة إلى أن ما أسند إلى
الرسول لا يمكن أن نعتمد عليه كثيرا كمصدر أساسي لدينا ما لم
يتايد بالقرآن أو بأدلة قطعية تثبت صحتها عن الرسول .

ولا يكفي أن نقدر حديثا ونعتقد صحته ونخضع القواعد
الطبيعية له بمجرد كونه مذكورا في كتاب البخاري أو مسلم أو
غيره من الكتب الصحاح . وليس معنى ذلك أنني أنقص من قدر
أولئك الرجال أو أشك في صدقهم وأمانتهم . فإني أعلم أنهم قد
بذلوا أقصى جهدهم في الفرز والتمحيص . ولكن تلك الجهود
المبذولة لا تعني أن الأحاديث التي وقع اختيارهم عليها مقطوعة بصحتها .
فهي لا تعدوا مهما بالغوا في تمحيصها إفادة الظن . وقد اتفق علماء
المسلمين على أن النص الظني إنما يفيد العمل لا العلم .

فإذا ورد حديث عن الرسول مما يتعارض مع بعض الحقائق

العلمية فلا يجوز لنا أن نرتاب من أجله في تلك الحقيقة أو نكذب بها أو نشك في رسالة الرسول أو نكذب بها. بل تكون معارضته العلم دليلا قاطعا على عدم صحته عن الرسول. مثال ذلك ما روته الكتب الصحاح من أن النيل والفرات نهران ينبعان من الجنة من شجرة سدرة المنتهى وما رواه عن الرسول من أن أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد الحوت التي تحمل هذه الأرض التي نسكنها.

وما أكثر هذا النوع من الاحاديث التي كانت تنتشر في الشعرب الإسلامية بسرعة البرق والتي ان دلت على شيء فانما تدل على مقدار تطفل المتطفلين واستغلالهم لاسم هذا الدين السميح القطرى الذى يمتزج فى أقصى سرعة بتلك الشعوب امتزاج الماء بالفصن الأخضر المورق .

وعامة المسلمين يتقبلون هذا النوع من الاحاديث عن ثقة وحسن نية لانهم يجدون فيها الحلول المريحة للمشكلات التي كانت تدور عليها أفكارهم وتثير فيهم الحيرة والقلق .

والايمان بالغيب اذا كان يشتمل على غذاء روحى لا نظير له واذا كان هو المفتاح الوحيد الذى تستفتح به ابواب السعادة التي يبحث عنها البشر متفانين في طلبها فقد كان أيضا كسلاح رهيب كثيرا ما يؤدي بحامله الذى لا يحسن استعماله الى اهلاكه واشقائه . لذلك فان كثيرا من المؤمنين الذين عز عليهم أن يفهموا معنى الايمان وأن ينتفعوا به كما ينبغى تموت فيهم روح النقد وتتخدر قواهم العقلية فيصبحون فريسة الاوهام والخرافات متقبلين كل ما يلقى عليهم بقطع النظر عن كونه صوابا أو خطأ .

ولعل هذا هو ما وقع فيه كثير من المسلمين من أهل القرون التي تلت عهد الرسالة وما بعدها . أولئك الذين بدأت تدب فيهم روح التقليد والثقة المطلقة وتتمكن فيهم وتجاوز القدر المألزم من الاعتدال .

فهذا هو السر في انتشار الاحاديث الضعيفة المخالفة للحقيقة العلمية ولحقيقة الرسالة العظمى ومستلزماتها .

واذا كان الاعتماد على المخرائب والاساطير في وقت من الاوقات يشكل وسيلة من وسائل ترسيخ الروح الدينية في النفوس واجتذابها اليه كما يدعيه بعض الانحرافيين من المسلمين القدماء فقد أصبح ذلك الآن وبعد أن تقدم الفكر البشرى أسواطا الى الامام وسيلة من وسائل التشكيك في الدين والتفكير عنه والحيولة بينه وبين تشرب النفوس المتعطشة له .

وكثير من دعاة الدين الذين جاءوا بعد القرون الثلاثة الاولى كانوا يدعون الناس الى الدين بمقتضى عاطفتهم الدينية القوية دون أن تشربه قلوبهم . فكانوا يدعون اليه باية وسيلة يرونها ناجعة بقطع النظر عن ما تؤدي اليه تلك الوسيلة في المدى البعيد ، وكأنهم يدعون الى الدين ولسان حالهم يقول الفايات تبرر الوسائط . غير أن الشارع لا يستعمل من وسائل الدعوة الا ما يتناسب مع عظمة تلك الشريعة وأرادة الخلود لها .

لذلك ترى القرآن خاليا وبعيدا عن استعمال تلك الوسائل السافلة رغم ما فيها من اجتذاب طبقات كثيرة من الناس حينئذ .

فالشريعة الإسلامية لا تفتخر بكثرة عدد اتباعها بل تفتخر بقوة عمقهم في التعلق بها والايمان بمبادئها وبروحها .

يقول الله تعالى : (ويوم حنين اذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) . ويقول : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ثم يقول : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) .

ولك أيها القارئ أن تتحقق بنفسك من صحة ما تقدم بأن تتصفح أى تفسير من تفاسير القدماء للقرآن كي ترى ما أدخل في تفاسير القرآن من الاساطير والاسرائيليات التي تنافي ما تستلزمه الرسالة

وتنافي نصوص القرآن نفسه .

ألم يسندوا أحاديث الى الرسول تثبت أن الرسول كان في يوم من الايام مسحورا في وعاء طلع واستمر ذلك أربعين يوما حتى نزلت عليه المعوذتان فشفى من سحره .

ألم يكن هؤلاء مؤكدين عن غير قصد قول الذين كفروا (أن تتبعون إلا رجلا مسحورا) .

وليت شعري كيف يمكن أن يصدق مسلم هذه الرواية التي أدنى محلولاتها الحط من كرامة محمد (ص) والاعتراف بضعف شخصيته إلى حد تائه بسحر سحرة اليهود وإلى حد أنه يخيل إليه أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله كما يقولون . والغريب في الأمر أن المعركة الكبرى بينه وبين خصومه هي هذه النقطة بالذات .

وقد رأينا كيف أن القرآن كان ينفي عنه هذه الصفة في أكثر من آية كما أن ترشحه للرسالة وقوة شخصيته الجبارة وسمو روحه المتصل بالمالأ الأعلى وقدرته الخارقة للعادة على املاك الفوس وتوجيهها . كل ذلك وغيره يقضى باستحالة تأثير السحر فيه .

ثم ان الأحاديث والآثار المختلفة عن الصحابة والتي قد نسبت اليهم وإلى الرسول زورا وبهتانا لعلها أقطع وأشنع مما تقدم حين قالوا ان الشيطان ألقى عليه وهو يتلو سورة ((والنجم)) إذ باغ (أقرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى على لسانه هنا (تلك المفرانيق العلى وأن شفاعتهن لترجى) .

فلما أتم السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون معه وكان سجود المشركين فرحا بذكر آلهتهم بخير . قالوا فحزن الرسول لذلك حين تنبه لم تلا فنزل عاياه قوله تعالى في سورة الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء الا اذا تمنى (١) ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) .

(١) فسرنا كلمة تمنى بمعنى تلا .

فانظر الى أى حد استطاعت الملاحدة الكائدون أن ينفذوا الى صميم الرسالة فيشوهوها وإلى أى حد استطاعوا أن يبخروا في أوساط المسلمين ما كان المشركون يحادون به الرسول في أول رسالته . وانظر الى أى حد بلغت بساطة بعض المسلمين وثقتهم بمن سلف منهم حتى اعتقدوا صحة تلك الآثار وقداستها فاضلوا عنها وأولوها حسب ما يلائم مزاجهم الفكرى وإيمانهم بالرسالة العظمى وأصولها . متناسين ما بين الاعتقادين من التناقض الفاحش والمس بمقام الرسالة والمخالفة لنصوص القرآن نفسه . والا فكيف يمكن أن نجتمع بين الاعتقاد بأن محمداً رسول من الله وبين الاعتقاد بإمكانية وحصول تأثير الشيطان فيه أو محالته .

واذا كان القرآن يقول في معرض ذكر الشيطان (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتكلمون) . فكيف يمكن أن يكون له سبيل على رسول الله . (هل أبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

ونحن إذ نأسف لوقوع كثير من الكتاب والمدعات الدينيين القدماء في تلك الإشراك المردية بحسن نية وعن غير قصد . فلا ننكر فضل طائفة كبيرة من العلماء الاجلاء في تلك القرون نفسها إذ تفتنوا لتلك الأخطاء الشائعة وأنكروها وكشفوا عنها ورفعوا أصواتهم ضدها مبينين ضعف تلك الآثار الواردة فيها من حيث السند ومن حيث المتن . كما شرحوا مخالفتها لقواعد الشريعة ومقام الرسالة .

ولعل من الآثار التي تحط من كرامة الرسول وتنقص من قدره وتخالف نصوص القرآن معظم تلك الآثار التي تنسب الى الرسول تلك الطائفة الضخمة من الخوارق المادية التي دونها كل ما جاءت به الرسل الأولون من المعجزات حتى أصبح الشعراء والكتاب من المسلمين في القرون الوسطى يتسابقون أيهم يسند الى رسول الله من الخوارق المادية ما لم يسنده إليه غيره . ويحاولون تعظيمه ورفع

قدره وتقديسه من هذا الطريق . من طريق تجريده من بشريته معتقدين أن ذلك مما يقربهم الى الله ومما يحجب الرسول في ذلرب الناشئة غافلين عن أن أكثر الآثار الواردة في المقام ضعيفة أو موضوعة وما ورد من ذلك في الكتب الصحاح يجب أن يوضع جانباً وأن لا يعتمد عليه لأمرين : أولهما : أن ما ورد من ذلك مهما تعددت طرقه وتلقاه بعض الأمة بالقبول لا يعدو أن يكون ظنيا . والخبر الظنى عند العلماء الأصوليين القانونيين من المسلمين إنما يفيد العمل لا العلم .

ثانيهما : أن تلك الآثار الواردة في نسبة الخوارق المادية الى الرسول مخالفة في معظمها لنصوص القرآن القطعية .

فإن القرآن من أوله الى آخره يؤكد أن المعجزة الوحيدة لهذا الرسول هي القرآن وحده وينفى بطريقة قطعية أن تكون له معجزة أخرى غيره . (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) . (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) . (فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) . (قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا) .

ولا نستطيع أن نذكر كل ما ورد من الآيات القرآنية في اقتناع خصوم الرسول بأن اجابة طلبهم للآيات المادية شيء مستحيل . ومع ذلك كله فقد نسب اليه من الخوارق المادية ما تحير فيه العقول ومع أن المعركة الكبرى بينه وبين خصومه تدور حول هذه النقطة بالذات فهو يحاول ويريد منهم أن يؤمنوا عن طريق الاقتناع وهم يضغطون عليه ويحادونه ويتحدونه أن يأتيتهم بآية حسية تراها أبصارهم وتلمسها أيديهم حتى قهرهم واستدرجهم من حيث لا يعلمون .

ومع ذلك كله روى البخارى وغيره أن قريشا سألت رسول الله آية فانشق القمر فلقين . وذلك قبل الهجرة بخمس سنين وجعلوا هذا الحديث تفسيرا لقوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) .

ولسنا في معرض تفسير القرآن والحديث وتفصيل كل ما قيل وما يقال في هذه القضية أو غيرها من القضايا المتقدمة الذكر . إنما نريد أن نبين للقارئ القواعد التي يركز عليها الدين الاسلامى في نظرنا وأن التناقض الكبير الذى نجده في الكتب الدينية ليس مرده الى طبيعة الدين نفسه لكن مرده الى عوامل خارجية عنه وإلى ظروف خاصة نشأت عليه بعد اكتماله .

والقاعدة الواجب اتباعها في نظرى بالنسبة الى الحديث المروى عن رسول الله (ص) هي أن يقسم على نوعين ما يتعلق منه بالامر والنهى والايخبار المنسوبة لغير الله ورسوله . نكتفى فيه بما ثبت من طريق الظن وما يتعلق منه بالامور الغيبية والايخبار المنسوبة الى الله ورسوله فلا يسوغ لنا أن نعتد الا على ما ثبت بطريق قطعى وما أعز وأندر تلك الأحاديث التي تثبت ثبوتها قطعيا .

بقى لنا أن نتعرض للقرآن وعلاقته بالعلوم المادية والامور الغيبية ونريد أن نفتتح هذا البحث بالآية الكريمة (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب) .

ذكرنا هذه الآية لأن بحثنا متوقف على معرفة المحكم والمتشابه من القرآن . وفي نظرى أن التشابه في القرآن شيء نسبي فهو يختلف باختلاف العصور والطبقات فقد لا تكون في القرآن آيات معينة

متشابهات عند كل قارئ وفي كل عصر فقد تكون الآية محكمة عند طبقة من طبقات العلماء متشابهة عند طبقة أخرى . وقد تكون الآية محكمة عند أهل العصور الأولى متشابهة بالنسبة الى عصرنا مثلا أو العصور المقبلة وقل عكس ذلك تماما .

فكثير من الآيات كانت في العصور الأولى متشابهات وبمقتضى التطور العالمى أصبحت محكمة واضحة المعانى ويمكن ان نهمل لذلك بهذه الآية . (أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون .)

فان هذه الآية قد ساعدت النظريات العلمية الحديثة على فهم معناها وإيضاحه للاذهان . وكذلك قوله (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) . وقوله في سورة (ص) من قصة سليمان في معرض ذكر مغيب الشمس (حتى توارت بالحجاب .

كما أنه أيضا من الطبيعي أن يكون بعض ما استغلق على أفهامنا من الآيات نتيجة طبيعية لتطور مفاهيم الحياة وبعدها عن ظروف الزمان والمكان المحيط بتلك الآيات حين نزولها .

فالتشابه الوارد في القرآن اذن ضرورة تقتضيها طبيعة القرآن نفسه . فان كتابا يراد له أن يخلد ما دامت السماوات والارض ويراد له أن ينتشر في مشارق الأرض ومغاربها وأن تستضيء به كل الطوائف البشرية على اختلاف نزعاتها واستعداداتها . مستحيل أن يفهم كل قارئ له جميع ما فيه على أن الجانب التذكيري والتربوي منه متيسر للجميع (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) الآية وهذا هو سر القرآن ومداره .

واتباع ما تشابه من القرآن هو تاويل ما لم يتضح معناه وتحمله معنا لا تقتضيه العبارة الواردة بل هو مستوحا من الخارج ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل .

والتشابه في القرآن يرد غالبا في ما يتعلق بالفزيات والالاهيات والكونيات مثل قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) . وقوله (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام والملائكة وقضى الأمر والى الله ترجع الامور) وقوله (انازينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) . وقوله (الرحمن على العرش استوى) . وقوله قل أننكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) . ومن ذلك قوله (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يفتشى الناس هذا عذاب اليم) . الى غير ذلك من الآيات الكثيرة . ونحن لا نستبعد أن تساعد الكشف العلمية على توضيح كثير من هذه المتشابهات كما ذكرنا من قبل . فان الوقوف على السنن الكونية هو أهم وأوثق ما يعتمد عليه في شرح المراد من كلام الله شريطة أن يتعدى هذا الوقوف مرحلة النظريات التى تقبل التعديل الى مرحلة التحقيق العلمى الذى لايقبل التعديل . ذلك لان القرآن كلام الله والكون فعل الله ويستحيل أن يقع التناقض بين قول الله وفعله . فاذا اشتبهت علينا بعض الآيات التى تتحدث في العلوم الكونية فلان اكتشافاتنا لقواعد هذه العوالم وحققها لم تتم بعد ولم تقترب من نهايتها . فتأمل قوله تعالى (ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) . وقوله (ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) .

الا ترى كيف أخبر بوجود أو امكانية وجود دواب في الاجرام السماوية العليا وقرر زيادة على ذلك امكانية الجمع بين سكان

الارض وسكان السموات . وقال في آية أخرى (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه) . فمن علينا بتسخير ماتحتوى عليه أعماق السموات كتسخيره لما تحتوى عليه أعماق الارض لنا الى غير ذلك من الايات الكثيرة . ونحن لانتسرع في تفسير القرآن وتأويله بما لم نحط به علما . والى أن يكتشف الانسان ما يوضح معانى تلك الايات وأضرابها بعقله الجبار وتجاربه المتوالية يجب أن نتوقف في تفسيرها ونعدها من المتشابهات .

أما ما يتحدث به القرآن من الأمور الغيبية الخارجة عن نطاق تصوراتنا فلنا أن نسلك أزاء ذلك احدى طريقتين . إما أن نتوقف ونسلم ونقول آمنا به كل من عند ربنا دون أن نحاول ونتطلع الى فهم شيء مما تحتوى عليه تلك العبارات الواردة وإما أن نفهمها ونأخذ بها على أنها تمثيلية لا غير بمعنى أن بعض الحقائق العليا التي لا يمكن للعقل البشري المحدود أن يتصورها ، هذه الحقائق يقربها القرآن لأذهاننا ويشخصها لنا بأسلوبه المعروف في صور حسية تناسب احساساتنا البشرية وطبيعتنا المادية .

ومن هذا النوع ما وصف الله به الدار الآخرة من الصفات المادية الحسية التي لا يمكن للانسان من حيث أنه انسان أن يتصور السعادة المثالية والشقاء المثالي الا فيها . ولو لم تصور له الحياة الآخرة في القالب المطابق لمزاجه النفسى وطبيعته المادية لاستحال أن يحصل الفرض المطلوب من تربيته واعداده لتلقى الكمالات العليا والا فان نمط الحياة الثانية ليس من نوع هذه الحياة الدنيا وليس من الممكن أن تدرك عقولنا المادية ذلك النوع الغير المادى . فمن اللائق بمقام التشريعة الاسلامية الاعلى ومن تقدير القرآن العظيم حق قدره والسمو في فهمه وادراك مغازيه أن نعتبر أن تلك التفاصيل المادية التي أوردتها فيما يتعلق بوصف الدار الآخرة إنما هي من باب تمثيل وتشخيص ما لا يمكن أن يتصوره الحس في قوالـسب

محسوسة تقريبا للأذهان وتحريكا لطبيعة البشر المادية . خصوصا طبيعة تلك الأمة العربية التي يراد لها أن تحرك العالم وتؤثر فيه وتيقظه من جديد .

أنظر كيف يصف القرآن الجنة للأمة العربية خاصة وللشعر عامة فيقول : (فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكراب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) . ويقول في آية أخرى (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات) ويقول (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة) . ويقول في معرض ذكر الشقاء الذى أعد للكافرين (خذوه ففلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه أنه كان لا يؤمن بالله العظيم) . ويقول : (انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب انها ترمى بشر كالكصر كأنه جمالات صفر ويل يومئذ للمكذبين) .

والتأمل في هذه الايات وأضرابها يوحى بان الفرض من تصويرها للسعادة والشقاء اللذين أعدا للفريقين في هذه الصورة الحسية المألوفة في حياتنا هذه إنما هو ايقاظ المشاعر وتحريكها وقرعها وتوجيهها للصرات المستقيم . وليس معنى ما قلناه التشكيك في صدق القرآن أو في وجود الجزاء كلا بل معناه السمو بفهم معانيه وأغراضه وتقديره حق قدره . (١)

(١) وهذا الاختيار الذى شرحناه لا ينفى امكانية ثبوت الجزاء المادى الحسى الذى يفهم من ظاهر تعابير القرآن والحديث .

ونؤكد هنا ما قلناه آنفا من أن ما يتحدث القرآن به من الفيضيات إذا لم نستطع أن نفهمه على الأساس الذي شرعناه فلا أقل من أن نقول أنه من التشابهات ولا يختلف اثنان في أن القرآن كتاب عربي تربوي أدبي قبل كل شيء. ومن تأمل كلام العرب وآدابهم لم يخف عليه ما لخيالهم الواسع المدى من آثار في تشخيص الحقائق وتصويرها وماذا يقول الخصم في قوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .)

فهل يقولون أن هناك محاورة حقيقية بين الله وبين هذا الكون وأن هناك عرضا وإيلاء وإنسانا أنقذ الموقف فحملها. وماذا يقولون في قوله تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون). فهل سيكون هناك ميزان حقيقى ذو كفتين ويكون هناك ثقل وخفيف. وماذا يقولون في قوله (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وهل من التعمق في فهم القرآن وتقديسه والاعتراف بالمقام اللائق به أن نقول بناء على الآية أنه سيكون لكل إنسان كتاب خاص يتصفحه ليقرأ فيه كل ما عمله في حياته كما يقرأ جريدته .

ويؤسفنا من بعض المفسرين أنهم ينتهجون في تفسيرهم نهجا لا يتفق وجلالة القرآن وقديسيته وكونه تنزيلا من حكيم حميد . فهم يشرحونه بطريقة سطحية بسيطة كما يشرح القلامذة الابتدائيون اسمى قطعة من الأدب الرفيع (ولله المثل الأعلى) . فإذا وجدوا مثلا القرآن يقول (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه) إلى أن يقول (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه) قالوا في يوم القيامة يتسلم المؤمن كتابا بيده اليمنى فيه جميع أعماله في الحياة الدنيا فيقرؤه مستبشرا وجهه ثم يريه غيره ليقراه انتشاء وفرحا أما

الكافر فيتسلم كتابا له كذلك بيده اليسرى فيقرؤه فيصفيه من الخزي والخجل والحسرة ما يجعله يقول يا ليتنى لم أوت كتابيه .

والحال أن لهذه الآية اسمى معنى وأعمق مغزى من ذلك فهي تصور لنا حالة السعيد والمشي في ذلك اليوم الرهيب حين تنطبع في نفس كل فرد صورة حياته الأولى بما فيها من خير وشر انطبعا ذاتيا فتعكس تلك الصورة على مظهره وفي عيون من حوله انعكاسا تلقائيا فيزداد سعادة على سعادته الباطنية أو شقاء على شقائه الباطنى كما قال تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا) . (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسييا) . وهذا المعنى الذى ذكرناه هو الذى عندنا بتفسير كثير من مشاهد القيامة المذكورة في القرآن كالميزان والكتاب والحساب وهذا هو معنى شهادة أعضائه عليه . لكن القرآن يفرغ هذا المعنى في قوالب حسية مختلفة تقريبا للاذهان كما أسلفنا .

ونحن نعلم أن أولئك المفسرين يعتمدون على آثار مسندة إلى الصحابة أو التابعين وقد تسند إلى رسول الله نفسه ولكن لا نعيد ما شرعناه في أول هذا الفصل ولا أدل على مدى الاختلاف الذى كان شائعا حينئذ من التناقض الكبير الذى نجده في رواياتهم فقد تتعدد الروايات عن الصحابي مثلا في القضية الواحدة مع اختلاف بعضها عن بعض كل الاختلاف .

وأخيرا نرى أن القارئ الباحث يجب أن يلاحظ أن الدعوة الإسلامية تدخل في حسابها قبل كل شيء وتراعى أول ما تراعى العوامل الطبيعية والعوامل النفسية والاجتماعية للأمة العربية التى انتخبت لتلقى هذه الدعوة ونشرها في العالم .

فنجاح هذه الدعوة الكبرى كان نتيجة طبيعية للتناسق
والموافقات التي كانت بين طبيعة الرسالة وبين شخصية الرسول
ثم بين ذلك كله وبين ظروف الزمان والمكان المحيطين بتلك الرسالة
ثم بين ذلك وبين مقدار الاستعداد المتوفر في أولئك المخاطبين مباشرة
إلى غير ذلك من الموافقات . هذا مع اشتغال تلك الدعوة على
العناصر التي يقتضيها تطور العالم في جميع الميادين . فذلك هو
سر نجاحها وبقائها خالدة مدى الدهر صامدة في وجه جميع العوامل
التي تحالفت على إفنائها .

وذلك هو سر اعجاز القرآن . فتبارك الله لحسن الخالقين .

حقوق الطبع والنشر

محفوظة للمؤلف



فهرس كتاب الاسلام والتطورات العالمية

الصفحة ٥

اهداء وتمهيد

- ٨ — الفصل الاول: كيف نؤسس حضارتنا الجديدة
- ١٥ — الثاني : العقيدة واثرها في تكوين الحضارات
- ٢٠ — الثالث : القومية العربية والاسلام
- ٣٠ — الرابع : الاشتراكية والاسلام
- ٤٥ — الخامس : المرأة والاسلام
- ٦٨ — السادس : الاسلام والتطورات العالمية من الوجهة
العقائدية
- ٨٠ — السابع : الاسلام والتطورات العالمية من الوجهة
الاجتماعية
- ١٠٢ — الثامن : الاسلام والتطورات العالمية من الوجهة
العلمية

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة الحزب ٣ نوح بيليسى — الجزائر

شعبان ١٣٨٦ هـ — ديسمبر ١٩٦٦ م

صفحة الخطا والصواب

عدد الصفحة	عدد السطر	الخطا	الصواب
٦	٥	يجهد	بجهد
٨	١٠	لتحركته	لتحركه
—	١١	ريائب	أرباء
٩	٠١	بأريها	باريها
١٠	٢٣	فانشرع	فلنشرع
١٠	٢٤	مبادئى	مبادئ
١٧	١٠	والعقيدة	والعقيدة
٢٣	١٧	نفسه	نفسه
٧٧	١٧	المادية	المادية
١٠٩	١٥	والدعات	والدعاة

طبع بمطابع الحزب
٣ شارع ميلسي
الجزائر

